من رحم الأرض

الجزء السابع

ممالك وشعوب بلاد الشام

من حلب إلى حوض العاصي والممالك المحيطة

حين تروي الأرض آخر حكاياتها الشامية
بين الممالك الكبرى والمدن المنسية

إعداد وصياغة
أماني سليمان

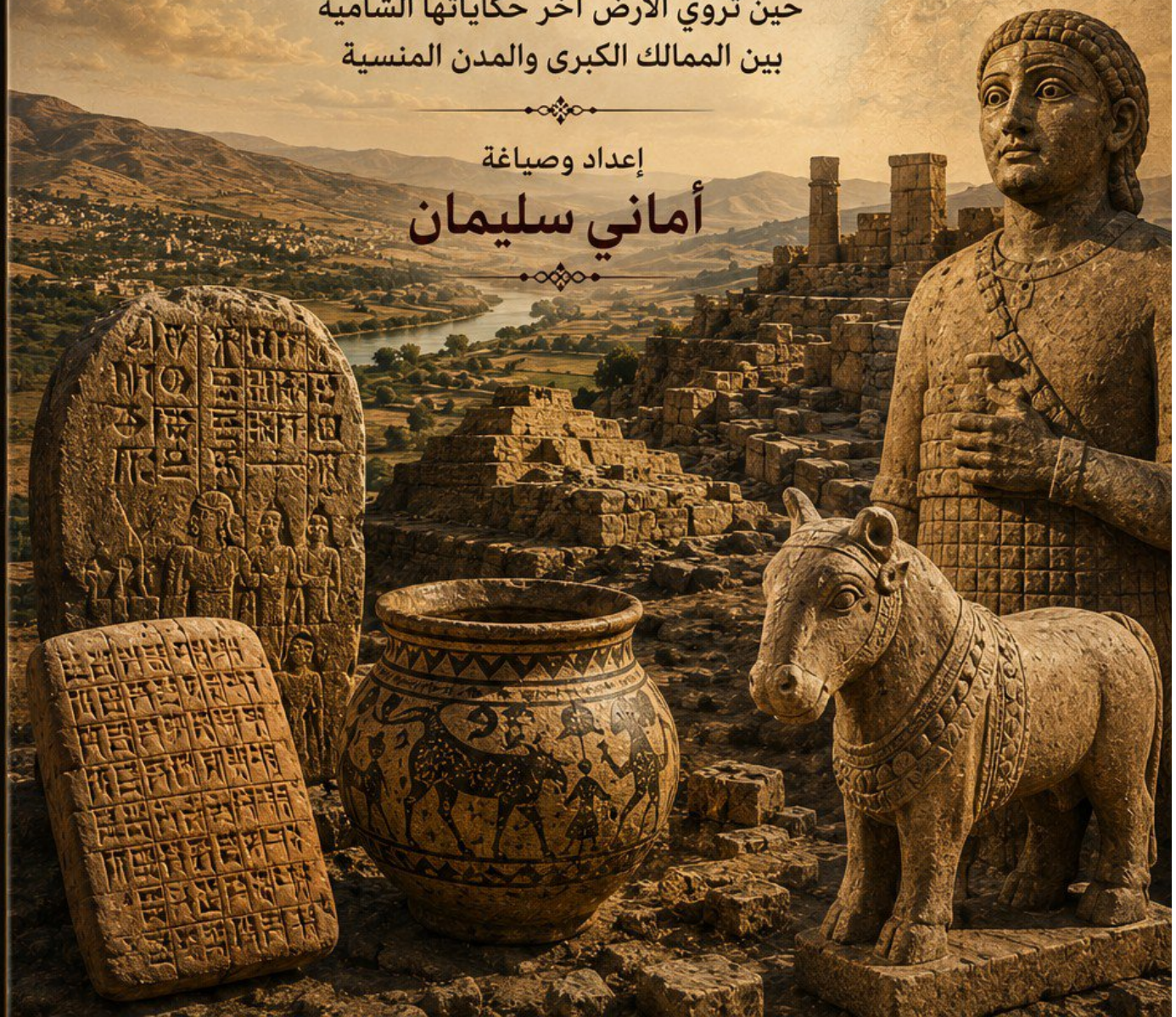

من رحم الأرض ✦ الجزء السابع ✦ ممالك وشعوب بلاد الشام ✦ من حلب إلى حوض العاصي والممالك المحيطة ✦ أماني سليمان

من رحم الأرض

الجزء السابع

ممالك و شعوب بلاد الشام القديمة

من حلب إلى حوض العاصي والممالك المحيطة

إعداد و صياغة

أماني سليمان

من حلب إلى ألالاخ، ومن قطنا إلى أمق سهل العمق وأعالي الفرات ومن الممالك الكبرى إلى المدن الصغيرة نكتشف بلاد شام لم تكن هامشًا في تاريخ الشرق القديم بل فضاءً حيّاً تفاعلت فيه الممالك و الشعوب أرضًا صنعتها الطرق والتجارة والحرب والتحالفات وتركت تحت ترابها حكايات ممالك اندثرت لكن آثارها ما زالت تتحدث

المقدمة

لم تكن بلاد الشام في العصور القديمة أرضًا تعبرها الجيوش والقوافل فحسب، بل كانت واحدة من أكثر مناطق العالم القديم حركةً وصراعًا وتنوعًا. ففي مدنها وممالكها نشأت دول صغيرة وكبيرة، وتنافس ملوكها على النفوذ، وتحالفت فيما بينها حينًا، وتحاربت حينًا آخر، بينما كانت الإمبراطوريات الكبرى من حولها تسعى باستمرار إلى إخضاعها والسيطرة على طرقها ومدنها.

ومن بين هذه الممالك ظهرت كيانات سياسية تركت آثارًا مهمة في التاريخ، بعضها امتلك عواصم مزدهرة وقصورًا ملكية وأرشيفات غنية بالوثائق، وبعضها لم يصلنا عنه إلا القليل، لكن ما بقي من آثاره يكشف عن عالم سياسي معقد لم يكن أقل أهمية من الممالك الكبرى التي اشتهرت في كتب التاريخ.

في هذا الجزء من رحم الأرض نعود إلى قلب بلاد الشام القديمة، لنقترب من ممالك ومدن كان لها حضور بارز في تاريخ المنطقة، ومنها يمحاض التي جعلت من حلب مركزًا لقوة سياسية واسعة، وألالاخ التي كشفت ألواحها وأطلال قصورها عن جانب مهم من الحياة السياسية والإدارية في العصر البرونزي، وقطنا التي تحولت إلى قوة مؤثرة بفضل موقعها ودورها السياسي.

وسنتابع كذلك تاريخ مملكة أمورو، التي دخلت في صراعات وتحالفات مع القوى الكبرى في الشرق الأدنى، ثم نصل إلى قادش التي ارتبط اسمها بأحد أشهر الصراعات العسكرية في تاريخ الشرق القديم، قبل أن نتعرف إلى

تونيب ونيا وغيرهما من المراكز التي لعبت أدوارًا في شبكة الممالك والمدن التي شكلت المشهد السياسي لبلاد الشام.

لن تكون هذه الصفحات مجرد تعريف بمدن قديمة أو وصف لأطلال اندثرت منذ آلاف السنين، بل محاولة لإعادة بناء قصص تلك الممالك من خلال ما تركته لنا النصوص والآثار والسجلات الملكية.

سنرى الملوك وهم يصعدون إلى السلطة، والممالك وهي تتوسع أو تتراجع، والحدود وهي تتغير، والتحالفات وهي تُعقد ثم تنهار، والجيوش وهي تخوض معاركها، والمدن وهي تواجه أطماع القوى الكبرى.

إن تاريخ بلاد الشام القديمة لم يكن تاريخ ممالك منعزلة، بل تاريخ عالم مترابط؛ فالقرار الذي يُتخذ في قصر ملكي قد يصل أثره إلى مدينة بعيدة، والحرب التي تبدأ بسبب مدينة أو طريق تجاري قد تغير موازين القوى في منطقة كاملة.

ومن هنا تبدأ رحلتنا الجديدة؛ رحلة لا تبحث فقط عن المدن التي بقيت أسماؤها في كتب التاريخ، بل عن الممالك التي صنعت أحداثها، وعن الشعوب التي عاشت فيها، وعن القصص التي أخفتها طبقات الأرض حتى أعاد علماء الآثار والنقوش والألواح الطينية كشفها من جديد.

يمحاض مملكة حلب القديمة

في شمال بلاد الشام، خلال العصر البرونزي الأوسط، ظهرت مملكة أصبحت في وقت لاحق واحدة من أقوى القوى السياسية في المنطقة. كانت تلك المملكة يمحاض، واتخذت من حلب القديمة، مركزًا لها.

ظهر اسم يمحاض في المصادر المسمارية خلال بدايات الألف الثاني قبل الميلاد، وكانت المملكة ذات طابع أموري، وارتبط اسمها بمدينة حلب ارتباطًا وثيقًا حتى أصبح اسم يمحاض يدل على المملكة التي كان مركزها حلب.
وخلال القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد، تحولت حلب إلى مركز سياسي وعسكري مهم في شمال بلاد الشام، وأصبح ملك يمحاض يحمل مكانة استثنائية بين حكام المنطقة.

سمو-إبوخ وبداية صعود يمحاض

يُعد سمو-إبوخ أقدم ملوك سلالة يمحاض المعروفين بوضوح في المصادر. ويرتبط عهده بمرحلة كانت فيها المملكة تعمل على تثبيت نفوذها في شمال بلاد الشام، وسط منافسة شديدة بين ممالك المنطقة.

لم تكن يمحاض وحدها تسعى إلى توسيع نفوذها. فقد كانت ماري على الفرات قوة مهمة، وكانت قطنا في الجنوب منافسًا آخر، بينما أخذت آشور في عهد شمشي-أدد الأول تتوسع في شمال بلاد الرافدين ومناطق أعالي الفرات.

دخل سمو-إبوخ في صراع مع القوى التي كانت تهدد نفوذ يمحاض، وتظهر وثائق تلك المرحلة أن العلاقات بين الممالك لم تكن تقوم على الحرب وحدها، بل على التحالفات وتبدل المواقف واستخدام القوى المحلية في مواجهة الخصوم.

وفي نهاية عهد سمو-إبوخ انتقل الحكم إلى ابنه ياريم-ليم الأول، الذي سيجعل يمحاض واحدة من أبرز القوى السياسية في الشرق الأدنى في عصره.

ياريم-ليم الأول

مع اعتلاء ياريم-ليم الأول العرش، دخلت يمحاض مرحلة قوتها الكبرى.

حكم ياريم-ليم الأول في النصف الأول من القرن الثامن عشر قبل الميلاد، ويُؤرخ عهده عادةً إلى نحو ١٧٨٠–١٧٦٤ ق.م. ضمن التسلسل الزمني الأوسط، مع وجود اختلافات في التواريخ الدقيقة بين الباحثين. وكان ابن سمو-إبوخ وخليفته على عرش يمحاض.

استطاع ياريم-ليم أن يوسع نفوذ المملكة، وأن يجعلها طرفًا رئيسيًا في الصراعات السياسية التي كانت تدور في شمال بلاد الشام والجزء الشمالي من بلاد الرافدين.

وكان صعوده مرتبطًا بصورة خاصة بالصراع مع شمشي-أدد الأول ملك آشور، الذي بنى خلال تلك الفترة قوة واسعة امتدت من آشور إلى مناطق كبيرة من أعالي بلاد الرافدين.

كانت مملكة ماري في قلب هذه المنافسة. وبعد وفاة شمشي-أدد الأول، ساعد ياريم-ليم زمري-ليم على استعادة عرش ماري، وأصبحت العلاقة بين الرجلين من أهم العلاقات السياسية في المنطقة.

يمحاض وماري

تكشف أرشيفات ماري عن حجم النفوذ الذي امتلكه ياريم-ليم.

لم تكن العلاقة بين حلب وماري مجرد تحالف عابر؛ فقد أصبح ياريم-ليم صاحب نفوذ واضح في السياسة الماريّة، وكان زمري-ليم يتعامل معه باعتباره صاحب مكانة سياسية وأبوية رمزية في بعض المراسلات.

وتعززت العلاقة بالزواج أيضًا، إذ تزوجت شيبتو، ابنة ياريم-ليم الأول، من زمري-ليم، فأصبحت ملكة ماري.

وهكذا التقت المصالح السياسية والعائلية بين المملكتين. وكانت ماري تملك موقعًا مهمًا على طرق الفرات، بينما كانت يمحاض تمثل قوة كبرى في شمال بلاد الشام، ولذلك كان التعاون بينهما مفيدًا للطرفين في مواجهة المنافسين.

لكن قوة ياريم-ليم لم تكن قائمة على ماري وحدها. فقد امتد نفوذ يمحاض إلى عدد من المدن والمناطق في شمال بلاد الشام، وأصبحت حلب مركزًا لدولة إقليمية واسعة النفوذ.

قوة حلب في عهد ياريم-ليم

لم يكن لقب ملك يمحاض مجرد لقب محلي. فقد كانت مكانة ملك حلب مرتفعة إلى درجة أن الحكام الآخرين كانوا يعترفون بتفوقه السياسي، بينما ظهر في بعض الوثائق حكام محليون بوصفهم أصحاب مرتبة أدنى منه.

وتكشف وثائق ألالاخ لاحقًا عن هذه الهرمية السياسية بوضوح؛ فقد كان ملك حلب يُعامل بوصفه الملك الأعلى، بينما يظهر حكام المدن التابعة أو المرتبطة بيمحاض في مرتبة أدنى.

وهكذا أصبحت يمحاض، في عهد ياريم-ليم الأول وخلفائه الأوائل، إحدى القوى الكبرى في سورية القديمة، ولم تكن مجرد مملكة محلية محيطة بمدينة واحدة.

حمورابي الأول

بعد وفاة ياريم-ليم الأول، انتقل العرش إلى ابنه حمورابي الأول، الذي حكم نحو ١٧٦٤–١٧٥٠ ق.م. وفق التسلسل الزمني الأوسط.

وهنا يجب الانتباه إلى نقطة مهمة حمورابي الأول ملك يمحاض ليس حمورابي ملك بابل، رغم تشابه الاسم.

واصل حمورابي الأول سياسة المملكة القوية، وظلت يمحاض قوة سياسية وعسكرية مؤثرة. وكانت علاقاتها مع القوى الأخرى تقوم على التحالفات والمصالح المتبادلة، وخاصة مع بابل وماري.

وفي هذه المرحلة أصبحت يمحاض طرفًا مهمًا في الصراعات التي كانت تهز بلاد الرافدين أيضًا. فقد قدمت دعمًا عسكريًا لحلفائها، واستمرت علاقاتها مع ماري وبابل، بينما بقيت حدود نفوذها مرتبطة بموازين القوى المتغيرة في المنطقة.

من يمحاض إلى ألالاخ

من أهم الأحداث التي تكشف طبيعة حكم يمحاض تأسيس فرع من الأسرة الملكية في ألالاخ.

كان أحد أبناء حمورابي الأول، واسمه ياريم-ليم، يحكم منطقة في شمال المملكة، وكان مركزها مدينة إيريدو/إيرّيدو. وبعد تمرد وقع في تلك المنطقة

وتدمير المدينة، قام الملك أبا-إيل الأول، خليفة حمورابي الأول، بمنح أخيه ياريم-ليم مدينة ألالاخ لتكون مملكة وراثية تابعة ليمحاض.

وبذلك أصبحت ألالاخ تحت حكم فرع من الأسرة الملكية نفسها، مع بقاء ولائها لملك حلب.

وتُعد هذه الواقعة مهمة جدًا لفهم طبيعة الدولة اليمحاضية؛ فالعلاقة بين حلب وألالاخ لم تكن مجرد علاقة بين مدينتين متجاورتين، بل كانت مرتبطة بالسلالة الحاكمة نفسها. وقد حفظت ألواح ألالاخ تفاصيل مهمة عن هذا النظام السياسي.

أبا-إيل الأول

تولى أبا-إيل الأول الحكم بعد حمورابي الأول، واستمر نفوذ يمحاض في عهده، وإن كانت المعلومات المتوفرة عن هذه المرحلة أقل من المعلومات التي وصلتنا عن عهد ياريم-ليم الأول.

ومن أهم الأحداث المعروفة في عهده تمرد حاكم إيريدو المدعو زترادّو. وانتهى التمرد بتدمير المدينة، ثم عوّض أبا-إيل أخاه ياريم-ليم بمنحه ألالاخ، كما ثبتت العلاقة التبعية بين الفرع الحاكم في ألالاخ والعرش في حلب.

وهذه الحادثة تكشف أن قوة يمحاض لم تكن تعني غياب الاضطرابات الداخلية؛ فالمملكة كانت تضم مدنًا وأقاليم وحكامًا محليين، وكان على الملك الحفاظ على ولائهم ومنع التمردات من التحول إلى تهديد سياسي أكبر.

ملوك يمحاض بعد أبا-إيل

تعاقب على عرش يمحاض بعد ذلك عدد من الملوك، من أبرزهم ياريم-ليم الثاني ونِقمي-إبوخ وإيركابتم، ثم ملوك آخرون من الأسرة نفسها.

لكن المصادر تصبح أقل وضوحًا كلما تقدمنا في هذه المرحلة، ولذلك لا يمكن إعادة بناء حياة كل ملك وأحداث عهده بالتفصيل نفسه الذي نستطيع به دراسة ياريم-ليم الأول.

ومع ذلك، فإن وثائق ألالاخ تؤكد استمرار سلطة سلالة يمحاض، وتذكر ملوك حلب الذين حكموا خلال تلك الفترة، كما تكشف أن الملك اليمحاضي ظل يحمل مكانة الملك العظيم في النظام السياسي الإقليمي.

بداية التراجع

خلال القرن السابع عشر قبل الميلاد بدأت موازين القوى تتغير.

ظهرت قوة جديدة في الشمال هي المملكة الحثية، وبدأ ملوكها بالتوسع نحو شمال بلاد الشام وكان أبرز هؤلاء الملك حَتّوسيلي الأول، الذي شن حملات عسكرية متتابعة ضد المدن والممالك المرتبطة بيمحاض.

لم يهاجم حتوسيلي حلب مباشرة في البداية، بل اتجه إلى المناطق والمدن التي كانت تشكل جزءًا من شبكة نفوذها. وكانت ألالاخ من أبرز أهدافه، ثم اتجه إلى مناطق أخرى مثل أورشو وحسّوم.

وقد أدت هذه الحملات إلى إضعاف شبكة حلفاء يمحاض وقطع أجزاء من نفوذها الإقليمي. وتشير المصادر الحثية إلى أن حتوسيلي لم يتمكن من الاستيلاء على حلب نفسها، وظلت المدينة صامدة أمامه.

حتوسيلي الأول وحربه مع يمحاض

كان ملك يمحاض في هذه المرحلة ياريم-ليم الثالث، ثم خلفه حمورابي الثاني بحسب التسلسل الذي تعتمده الدراسات، مع وجود صعوبات في تحديد بعض المراحل الدقيقة من التسلسل الملكي.

خاضت يمحاض وحلفاؤها صراعًا طويلًا مع الحثيين. وتمكنت في بعض المراحل من مقاومة الهجمات، كما استعانت القوى الحورية في المنطقة بشبكة التحالفات التي كانت تميل إلى جانب حلب.

لكن الحملات الحثية المتكررة أضعفت المملكة تدريجيًا وهنا حدث تحول مهم لم تعد يمحاض القوة التي كانت عليها في عهد ياريم-ليم الأول. فقد تضررت شبكة المدن التابعة لها، وتراجعت قدرتها على التحكم بالمناطق المحيطة، بينما واصلت الدولة الحثية ضغطها العسكري.

سقوط حلب ويمحاض

بعد وفاة حتوسيلي الأول، تولى حفيده مرسيلي الأول العرش الحثي وفي عهد مرسيلي، انتهت المرحلة الكبرى من تاريخ يمحاض.

توجه مرسيلي إلى سورية، وتمكن من الاستيلاء على حلب وتدميرها، وبذلك انهارت يمحاض كقوة كبرى كانت تهيمن على شمال بلاد الشام.

ولم يكن سقوط حلب مجرد خسارة مدينة، بل كان نهاية نظام سياسي استمر أكثر من قرنين، وجعل من حلب واحدة من أعظم مراكز القوة في بلاد الشام خلال العصر البرونزي الأوسط.

ما بعد يمحاض

انتهت المملكة كقوة إقليمية كبرى، لكن حلب لم تختفِ من التاريخ.

فبعد الحملات الحثية أعيد بناء المدينة في مرحلة لاحقة، واستمرت حلب مركزًا سياسيًا مهمًا، وظهرت فيها سلالات وحكام جدد.

وهذا يوضح الفرق بين سقوط المملكة وسقوط المدينة؛ فقد انتهت يمحاض بوصفها القوة التي فرضت هيمنتها على شمال بلاد الشام، لكن حلب نفسها بقيت حيّة، لتدخل في مراحل جديدة من تاريخ المنطقة.

إرث يمحاض

تكمن أهمية يمحاض في أنها تقدم صورة واضحة عن قدرة مملكة شامية على بناء قوة إقليمية حقيقية في عصر كانت فيه بلاد الشام مقسمة بين عدد كبير من الممالك والمدن فقد تمكن ملوك حلب من استخدام التحالفات والقوة العسكرية والإدارة الملكية لتوسيع نفوذهم، وربطوا مدنًا ومناطق متعددة بمركز سياسي واحد وفي عهد ياريم-ليم الأول بلغت هذه القوة ذروتها، وأصبحت حلب طرفًا لا يمكن تجاهله في السياسة الدولية لعصرها. ومن خلال سيطرتها أو نفوذها على مدن مثل ألالاخ، ظهرت يمحاض بوصفها إحدى القوى الكبرى في الشرق الأدنى القديم.

لكن التاريخ لم يتوقف عند قوتها. فقد جاءت الدولة الحثية من الشمال، وبدأت بتفكيك شبكة نفوذها، ثم سقطت حلب نفسها أمام مرسيلي الأول ومع ذلك بقي اسم حلب حاضرًا في تاريخ بلاد الشام؛ فالمدينة التي كانت قلب يمحاض لم تكن نهاية قصتها بسقوط المملكة، بل كانت على موعد مع عصور وممالك جديدة ستواصل كتابة تاريخها.

اللغة والكتابة والدين

كانت الكتابة المسمارية إحدى أهم أدوات الإدارة والاتصال في عالم يمحاض.

لكن استخدام المسمارية لا يعني أن سكان المملكة كانوا يتحدثون لغة بلاد الرافدين نفسها. فقد استُخدمت الكتابة المسمارية لكتابة لغات متعددة، ومنها اللغات التي كانت مستخدمة في بلاد الشام.

وكانت اللغة الأمورية ذات أهمية كبيرة في البيئة السياسية ليمحاض وماري وممالك سورية أخرى، بينما أصبحت المسمارية وسيلة مشتركة للمراسلات الدولية والإدارية.

وهذا أمر مهم لفهم العالم القديم الكتابة والنطق واللغة ليست شيئًا واحدًا. فقد يستخدم الكاتب نظام كتابة نشأ في منطقة أخرى لكتابة لغة محلية مختلفة.

وكان الكتبة يحتاجون إلى تدريب طويل، ولذلك كانت معرفتهم بالكتابة تمنحهم مكانة مهمة داخل الإدارة والقصور.

ماذا تركت يمحاض وراءها؟

المفارقة أن إحدى أهم الممالك السورية في الألف الثاني قبل الميلاد لم تترك لنا مدينة محفوظة بكاملها نستطيع أن نسير في شوارعها ونرى قصورها كما كانت لقد تعرضت حلب القديمة لتحولات عمرانية متكررة عبر آلاف السنين، وبُنيت طبقات جديدة فوق طبقات أقدم، مما جعل الوصول إلى آثار عصر يمحاض أمرًا معقدًا لكن غياب مدينة كاملة لا يعني غياب الأدلة.

فالمصادر المكتوبة التي عُثر عليها في مواقع أخرى، والآثار واللقى والمواد المرتبطة بشمال سورية، تسمح للباحثين بإعادة بناء جزء من تاريخ المملكة وعلاقاتها.

وتأتي أهمية أرشيفات ماري بصورة خاصة؛ لأنها حفظت مراسلات ووثائق تعكس العلاقات السياسية في زمن كانت فيه يمحاض إحدى القوى الكبرى.

ومن خلال هذه الأدلة نستطيع أن نعرف أسماء ملوك، ونفهم تحالفات، ونتتبع صراعات، ونرى كيف كانت الممالك السورية تتعامل مع بعضها البعض.

وهكذا لا تعتمد معرفة يمحاض على بقايا حلب وحدها، بل على شبكة واسعة من الأدلة التي جاءت من مناطق مختلفة.

وقد ارتبطت حلب بصورة خاصة بعبادة إله العاصفة، الذي كان من أهم الآلهة في شمال بلاد الشام. وفي التقاليد المحلية عُرف إله العاصفة في حلب باسم هدد، وارتبط بالمطر والعاصفة والقوة والخصوبة، وهي عناصر شديدة الأهمية في مجتمع يعتمد بدرجة كبيرة على الزراعة.

وهكذا أصبح المركز الديني في حلب جزءًا من هوية المملكة نفسها، وكانت مكانة المدينة الدينية تزيد من أهميتها السياسية.

ولم تكن عبادة إله واحد تعني غياب بقية الآلهة، فقد عرفت مجتمعات شمال بلاد الشام مجموعة واسعة من الآلهة والآلهات، وتداخلت التقاليد الدينية المحلية مع تأثيرات المناطق المجاورة. ومع انتقال الناس والتجار والجنود والأسر الحاكمة بين المدن، انتقلت معهم أسماء الآلهة والطقوس والتقاليد، وأعيد تفسير بعضها وفقًا للبيئة المحلية. ومن هنا كان الدين أحد المجالات التي تكشف عن الاتصال الواسع بين ممالك بلاد الشام القديمة.

ألالاخ مدينة القصر والألواح

في منطقة كانت تتقاطع فيها طرق الممالك القديمة، نشأت ألالاخ، التي تقع في سهل العمق في هاتاي الحالية جنوب تركيا قرب مجرى العاصي إحدى أهم مدن شمال بلاد الشام في العصر البرونزي. وهي عاصمة مملكة موكيش وهذه المملكة قامت في إقليم أمق (سهل العمق)

لم تكن ألالاخ مملكة مستقلة ذات نفوذ يوازي يمحاض أو مصر أو الحثيين، لكنها اكتسبت أهمية استثنائية بسبب موقعها السياسي وعلاقتها بالأسرة الحاكمة في حلب، ثم بسبب ما تركه سكانها وملوكها من أرشيفات ووثائق كشفت جانبًا نادرًا من تاريخ بلاد الشام في الألف الثاني قبل الميلاد.

وعندما بدأت الحفريات الأثرية في موقع تل عطشانة، ظهرت أمام الباحثين بقايا مدينة متعاقبة الطبقات، وفي داخلها قصور ومبانٍ إدارية وألواح مسمارية، فبدأت ألالاخ تستعيد صوتها بعد آلاف السنين.

القصر الملكي

كان القصر أحد أهم مباني ألالاخ ولم يكن القصر مجرد مقر لإقامة الملك، بل كان مركزًا للإدارة والسلطة؛ فمنه كانت تُدار شؤون المملكة، وتصدر القرارات، وتحفظ الوثائق، وتتم مراقبة الممتلكات والموارد.

وقد كشفت الحفريات عن مراحل متعددة للقصر، لأن المدينة لم تبقَ على حال واحدة؛ فقد هُدمت مبانٍ وأعيد تشييدها، وتغيرت طبيعة السلطة التي حكمت المدينة مع تغير القوى الكبرى في المنطقة.

وهذه الطبقات المتعاقبة هي التي جعلت ألالاخ مصدرًا تاريخيًا مهمًا؛ فكل مرحلة تركت وراءها جزءًا من قصتها.

ألواح ألالاخ

من أهم ما جعل ألالاخ مختلفة عن كثير من المدن القديمة أن سكانها تركوا وراءهم أرشيفًا من الألواح المسمارية.

كانت الألواح تُكتب باللغة الأكادية، التي كانت لغة الإدارة والمراسلات الدولية في جزء كبير من الشرق الأدنى خلال تلك الفترة.

وتناولت الوثائق موضوعات متنوعة، منها العقود والاتفاقيات والملكيات والقروض والمراسلات والمسائل الإدارية وهذه الوثائق لا تخبرنا فقط بما كان يحدث داخل القصر، بل تكشف طبيعة المجتمع والاقتصاد والقانون والعلاقات السياسية في المدينة فمن خلال لوح واحد يمكن أحيانًا معرفة اسم شخص، أو ملكية أرض، أو اتفاق بين طرفين، أو التزام مالي، أو علاقة بين الحاكم وأحد رعاياه وهكذا تحولت ألالاخ من مجرد موقع أثري إلى واحدة من أهم المصادر المكتوبة لفهم تاريخ شمال بلاد الشام.

ألالاخ في عهد الأسرة اليمحاضية

استمر حكم السلالة المرتبطة بيمحاض في ألالاخ لعدة أجيال ومن أبرز حكامها ياريم-ليم، الذي كان شقيق أبا-إيل الأول. وبعده جاء حكام آخرون من الأسرة نفسها، وحافظت المدينة على صلتها بالعرش اليمحاضي.

وكانت هذه الصلة جزءًا من النظام السياسي الذي جعل حلب مركزًا أعلى، بينما تمتعت ألالاخ بإدارة محلية وسلالة حاكمة خاصة بها.

لكن هذا الوضع لم يكن ثابتًا إلى الأبد، لأن موازين القوى في المنطقة كانت تتغير بسرعة.

الحثيون يصلون إلى ألالاخ

في القرن السابع عشر قبل الميلاد بدأت المملكة الحثية في الأناضول توسع حملاتها باتجاه شمال بلاد الشام وكان حتوسيلي الأول من أبرز ملوك هذه المرحلة قاد حتوسيلي حملات ضد عدد من المدن والمراكز المرتبطة بالنظام السياسي الذي كانت يمحاض تقوده، وأصبحت ألالاخ هدفًا لهذه الحملات.

وتشير النصوص الحثية إلى أن ألالاخ تعرضت للدمار خلال حملات حتوسيلي، وهو حدث يمثل نهاية مرحلة مهمة من تاريخ المدينة.

لم يكن سقوط ألالاخ حادثة منفصلة؛ فقد كان جزءًا من الهجوم الحثي الأوسع على شبكة النفوذ اليمحاضية وبذلك بدأت المدينة تفقد موقعها السابق، بينما أخذت قوة حلب نفسها تتعرض لضغط متزايد.

عودة ألالاخ

لكن تدمير المدينة لم يكن نهاية ألالاخ ففي مرحلة لاحقة، وبعد أن تغيرت موازين القوى، أعيد بناء المدينة، وظهرت فيها أسرة حاكمة جديدة ارتبطت بالقوى التي أصبحت تسيطر على شمال سورية.

وتنتمي هذه المرحلة إلى ما يعرف في علم الآثار بـ ألالاخ الرابعة، وهي الفترة التي أصبحت فيها المدينة مرتبطة بالمملكة الميتانية وكان من أبرز حكامها إدريمي.

إدريمي الملك الذي حفظ قصته على حجر

يُعد إدريمي أشهر حكام ألالاخ، ليس فقط بسبب ما فعله سياسيًا، بل لأنه ترك وراءه نصًا طويلًا يحكي فيه قصة حياته وصعوده إلى الحكم.

كان إدريمي أحد أبناء أسرة حاكمة مرتبطة بمدينة حلب، لكنه اضطر إلى مغادرة المنطقة في ظروف سياسية مضطربة.

هرب مع إخوته إلى إيمار على الفرات، ثم انفصل عنهم، وبدأ رحلة طويلة سعى خلالها إلى استعادة مكانته وفي النهاية تمكن إدريمي من العودة إلى المنطقة والسيطرة على ألالاخ، وأقام حكمه فيها.

وما يجعل قصته استثنائية أن إدريمي أمر بنقش سيرته على تمثال له، فبقيت روايته محفوظة حتى العصر الحديث.

ماذا يخبرنا تمثال إدريمي؟

يروي إدريمي في نصه أنه عاش فترة من التشرد والاضطراب، ثم وصل إلى كنعان، وهناك قضى سنوات قبل أن يبدأ طريقه نحو استعادة سلطته.

ويذكر أنه تعلم من الظروف السياسية والعسكرية المحيطة به، ثم عاد إلى ألالاخ، واستطاع تثبيت حكمه لكن النص ليس سيرة ذاتية محايدة بالمعنى الحديث؛ فهو نص ملكي يهدف إلى تقديم إدريمي بوصفه الحاكم الشرعي الذي استحق السلطة وهذا أمر مهم عند قراءة الوثائق القديمة؛ فالملك لا يكتب التاريخ فقط، بل يكتب الصورة التي يريد أن يتذكره الناس بها.

ألالاخ والميتانيون

خلال عهد إدريمي أصبحت ألالاخ مرتبطة بالمملكة الميتانية، القوة الصاعدة في شمال بلاد الرافدين وشمال سورية وكان إدريمي بحاجة إلى الاعتراف بقوة أكبر تحمي موقعه، بينما كانت الميتانيون بحاجة إلى الحفاظ على نفوذهم في المنطقة ولهذا دخلت ألالاخ في نظام سياسي إقليمي أوسع، أصبحت فيه خاضعة للنفوذ الميتاني مع احتفاظها بحاكمها المحلي وتظهر وثائق ألالاخ أن العلاقات السياسية لم تكن تقوم دائمًا على الاحتلال المباشر؛ ففي كثير من الأحيان كان الملك المحلي يحكم مدينته، لكنه يعترف بتفوق قوة أكبر ويدفع لها الجزية أو يلتزم بتحالفاتها.

الحياة في ألالاخ من خلال الوثائق

تكشف ألواح المدينة عن مجتمع منظم ومعقد كانت هناك أراضٍ زراعية، وملكية خاصة، وعقود بيع وشراء، وديون، وموظفون، وحرفيون، وعبيد وأشخاص مرتبطون بالقصر وتظهر الوثائق كذلك وجود نظام إداري يهتم بتسجيل الممتلكات والالتزامات والمعاملات.

وهذا يجعل ألالاخ مهمة بصورة خاصة؛ فبدل أن نعرف عن المدينة من خلال بقايا الجدران فقط، نستطيع أن نسمع أصوات أشخاص عاشوا فيها من خلال الأسماء والعقود والوثائق التي تركوها.

نهاية العصر الميتاني

استمرت ألالاخ تحت النفوذ الميتاني فترة من الزمن، لكن صعود الحثيين من جديد غيّر المشهد السياسي في القرن الرابع عشر قبل الميلاد بدأ الملك الحثي شوبيلوليوما الأول حملاته لتوسيع نفوذ بلاده في سورية.

وانهارت المملكة الميتانية تدريجيًا، وانتقلت مناطق واسعة من شمال سورية إلى النفوذ الحثي وفي هذه المرحلة فقدت ألالاخ مكانتها السابقة، وانتهى الاستقرار السياسي الذي عرفته خلال العصر الميتاني ثم دُمرت المدينة وهُجرت في نهاية العصر البرونزي المتأخر، ولم تعد مركزًا سياسيًا كبيرًا كما كانت من قبل.

لماذا بقيت ألالاخ مهمة؟

قد تبدو ألالاخ اليوم مدينة صغيرة مقارنة بعواصم الإمبراطوريات القديمة، لكن قيمتها التاريخية لا تقاس بحجمها ففيها اجتمعت عدة مراحل من تاريخ بلاد الشام أسرة مرتبطة بيمحاض، ثم سلطة حاكمة محلية، ثم نفوذ ميتاني، ثم توسع حثي.

وفي طبقاتها الأثرية يمكن تتبع تغير القوى السياسية، وفي ألواحها يمكن قراءة تفاصيل من الحياة اليومية والإدارة والاقتصاد والقانون.

أما تمثال إدريمي، فقد منحنا واحدة من أكثر الروايات الشخصية إثارة للاهتمام عن ملك من ملوك بلاد الشام القديمة.

لقد كانت ألالاخ مدينة عاشت بين الممالك الكبرى، وتغير ولاؤها السياسي مع تغير ميزان القوة، لكنها تركت وراءها من الوثائق ما جعلها واحدة من أهم النوافذ التي نطل منها اليوم على تاريخ شمال بلاد الشام في العصر البرونزي ولذلك فإن قصة ألالاخ ليست قصة مدينة ازدهرت ثم اختفت فحسب؛ إنها قصة مدينة عاشت التحولات الكبرى التي عصفت بالمنطقة، وشهدت انتقال النفوذ من يمحاض إلى الميتانيين ثم إلى الحثيين، قبل أن تصمت طبقاتها أخيرًا تحت أنقاض العصر البرونزي.

قطنا مملكة القصر الكبير

في وسط بلاد الشام ظهرت مملكة قطنا، التي اتخذت من مدينة قطنا، المعروفة اليوم بموقع تل المشرفة في ريف حمص، مركزًا لها. وخلال العصر البرونزي الأوسط أصبحت قطنا إحدى القوى السياسية المهمة في سورية، ونجحت في بناء شبكة من العلاقات مع الممالك المجاورة ومع القوى الكبرى في الشرق الأدنى.

ولا تأتي أهمية قطنا من آثارها وحدها، بل من موقعها في الأحداث السياسية التي شهدتها بلاد الشام خلال الألف الثاني قبل الميلاد، ومن الوثائق التي كشفت عن ملوكها وعلاقاتهم بالممالك الأخرى.

من أعظم ما كشفت عنه حفريات قطنا القصر الملكي، الذي يعد من أبرز القصور المكتشفة في بلاد الشام خلال العصر البرونزي.

وكان القصر ضخمًا للغاية، ويكشف عن قدرة المملكة على تنظيم موارد بشرية ومادية كبيرة ولم يكن القصر مجرد مكان للإقامة فهو كان مركزًا للسلطة والإدارة، ومكانًا للاحتفالات والاستقبالات، ومستودعًا للثروة الملكية، وفضاءً تجري فيه العلاقات السياسية بين الملك والوفود والأسر الحاكمة.

وتكشف هندسة القصر عن وجود مساحات كبيرة وقاعات وممرات ومخازن، وهو ما يعكس طبيعة الحياة الملكية في تلك الفترة وكان القصر يحتاج إلى عدد كبير من العاملين كتبة، وحراس، وحرفيين، وخدم، وطهاة، وموظفين، وغيرهم ومن هنا يمكن أن نفهم أن القصر كان مؤسسة اقتصادية بحد ذاته، وليس منزلًا ملكيًا فقط كان وجود قاعات واسعة في القصر ضروريًا لاستقبال الوفود وإقامة المناسبات الرسمية.

فالملك لم يكن يعيش منفردًا، وإنما كان بحاجة إلى إظهار سلطته أمام حكام آخرين وموظفيه ورجال الدين وأفراد المجتمع وكانت الولائم الملكية جزءًا من السياسة.

فالطعام والشراب في القصر لم يكونا مجرد متعة، بل كانا وسيلة لإظهار الثراء والكرم والمكانة، وربما لتثبيت العلاقات بين الحكام والوفود.

وكانت الهدايا والمجوهرات والمنسوجات والمواد الثمينة جزءًا من عالم العلاقات السياسية بين الأسر الحاكمة.

ومن خلال هذه الطقوس كان القصر يعرض صورة المملكة أمام الآخرين مملكة غنية، منظمة، وقادرة على استقبال حلفائها وخصومها.

بداية المملكة

برزت قطنا كقوة سياسية خلال العصر البرونزي الأوسط، في الفترة نفسها التي كانت فيها ممالك مثل يمحاض وماري تتنافس على النفوذ.

وكانت المملكة تحكمها أسرة ملكية أمورية، واستطاع ملوكها أن يحولوا قطنا إلى دولة ذات وزن إقليمي.

لم تكن قطنا تابعة دائمًا لقوة واحدة؛ بل تغيرت علاقاتها بحسب الظروف السياسية. وفي بعض الفترات اقتربت من ماري، وفي فترات أخرى دخلت في منافسة مع يمحاض، كما أقامت علاقات مع مصر وممالك أخرى.

قطنا وماري

تكشف وثائق ماري عن العلاقة بين قطنا والممالك المحيطة بها كان ملك قطنا في إحدى أهم مراحلها إشتوب-أشّر، الذي يظهر في المراسلات الملكية باعتباره حاكمًا ذا مكانة مهمة.

وكانت العلاقات بين قطنا وماري تتأثر بالصراع الأوسع على النفوذ في سورية فماري، الواقعة على الفرات، كانت تريد الحفاظ على نفوذها غربًا، بينما كانت قطنا قوة مستقلة لها مصالحها الخاصة.

ولذلك لم تكن العلاقة بين المملكتين مستقرة بصورة دائمة؛ فقد جمعت بين التواصل السياسي والمنافسة، وكانت التحالفات تتغير بحسب الظروف.

عندما أراد شمشي-أدد الأول تثبيت علاقته بمملكة قطنا، لم يكتفِ بالمعاهدة السياسية، بل لجأ إلى وسيلة كانت شائعة بين الأسر الملكية الزواج الدبلوماسي.

كان ملك قطنا في ذلك الوقت إشي-أدد، وكانت ابنته الأميرة بِلتوم. أما الطرف الآخر فكان ياسماخ-أدد، ابن شمشي-أدد وحاكم ماري. وبذلك أصبح الزواج رابطًا مباشرًا بين قطنا وماري، لكنه في الحقيقة كان جزءًا من سياسة شمشي-أدد الأوسع في مواجهة يمحاض، التي كانت القوة المنافسة الرئيسية في غرب سورية.

واللافت أن لدينا رسائل من أرشيف ماري تسمح لنا بمتابعة القصة، وليس مجرد معرفة أن الزواج حدث.

كان هناك تفاوض حول الزواج والهدايا والمهر ومكانة العروس داخل قصر ماري. ويذكر أحد المصادر أن شمشي-أدد حدد خمسة تالنتات من الفضة أي

ما يقارب ١٥٠ كغ تقريبًا بوصفها المبلغ المدفوع لقطنا في إطار الزواج، وهو ما يوضح أن الزواج الملكي كان مرتبطًا أيضًا بتبادل مالي ومادي كبير لكن المشكلة ظهرت بعد وصول بِلتوم إلى ماري.

فـ ياسماخ-أدد كان متزوجًا أصلًا من امرأة مرتبطة بالأسرة الملكية السابقة في ماري، ولذلك لم يكن من السهل أن تحصل بِلتوم فورًا على المكانة التي كان والدها ووالد زوجها يريدانها لها.

وكان إشي-أدد ملك قطنا يريد لابنته مكانة بارزة في قصر ماري، بينما كان ياسماخ-أدد مترددًا في منحها هذه المكانة بسبب زوجته الأولى.

وهنا تدخل شمشي-أدد بنفسه، لأن المسألة لم تعد شأنًا عائليًا فقط؛ مكانة بِلتوم داخل قصر ماري أصبحت مرتبطة باستمرار التحالف بين قطنا وماري. وتكشف الرسائل أن شمشي-أدد ضغط على ابنه لكي يعامل بِلتوم بما يتناسب مع مكانتها الملكية.

بل إن المصادر تشير إلى أن تفاصيل حياتها في ماري كانت معروفة لدينا بدرجة غير عادية، ومنها اختيار حجراتها في القصر وبقاء مربيتها التي رافقتها منذ طفولتها.

والأجمل في القصة هذه ليست قصة زواج فقط هي تكشف لنا كيف كانت قطنا تستخدم الزواج الملكي في السياسة الدولية، وكيف كان ملك قطنا يريد أن يضمن لابنته مكانة تتناسب مع مكانة بلاده، وكيف كان شمشي-أدد يرى الزواج جزءًا من تحالفه العسكري والسياسي.

قطنا ويمحاض

كانت المنافسة بين قطنا ويمحاض واحدة من أهم الصراعات السياسية في سورية خلال العصر البرونزي الأوسط كانت يمحاض بقيادة ملوك حلب قوة كبرى في شمال البلاد، بينما كانت قطنا تمثل قوة مهمة في الوسط والجنوب ولهذا اصطدمت مصالح المملكتين في مناطق النفوذ لكن الصراع لم يكن حربًا مستمرة بالضرورة؛ فقد كانت الممالك القديمة تستخدم أيضًا الزواج والتحالفات والمراسلات والاتفاقيات لتجنب الصدام أو لتقوية موقفها أمام خصم آخر وهذا جعل قطنا جزءًا من شبكة سياسية معقدة، لا يمكن فهم تاريخها باعتبارها مملكة منفصلة عن جيرانها.

العلاقة مع مصر

من أبرز ما يميز تاريخ قطنا علاقاتها مع مصر فقد وصلت إليها البعثات والمنتجات المصرية، وأصبحت مصر تنظر إلى ممالك سورية باعتبارها أطرافًا مهمة في سياستها الخارجية وتشير الأدلة الأثرية إلى وجود تأثيرات مصرية في قطنا، كما عُثر على قطع مصرية أو ذات صلة بمصر في المدينة.

ولم يكن وجود هذه الأشياء دليلًا على أن قطنا كانت مستعمرة مصرية؛ بل يعكس شبكة التبادل والهدايا والعلاقات السياسية التي ربطت مصر بممالك بلاد الشام وكانت الهدايا الملكية وسيلة مهمة لإظهار الصداقة أو تثبيت التحالفات بين الحكام فمن مراسلات العمارنة نرى أن أكيزي ملك قطنا راسل أمنتحوب الثالث ثم أخناتون و كانت رسائله تتعلق بالحماية والسياسة والحرب و منها طلبه دعم مصر ضد خصومه هذه الرسائل محفوظة ضمن مجموعة رسائل قطنا.

المقبرة الملكية

كشفت الحفريات عن مقبرة ملكية جماعية تحتوي على عدد كبير من المدافن والبقايا البشرية واللقى الثمينة ووجد الباحثون فيها أواني وأسلحة ومجوهرات وأختامًا وأشياء مستوردة من مناطق مختلفة.

وتشير هذه المكتشفات إلى أن الأسرة الحاكمة في قطنا كانت جزءًا من عالم واسع من التبادل التجاري والثقافي.

كما تكشف المقبرة عن طقوس الدفن والمكانة التي كان يتمتع بها أفراد الأسرة الملكية وكان دفن الموتى داخل المجمع الملكي يحمل معنى سياسيًا أيضًا؛ فوجود قبور الأسرة الحاكمة في القصر كان يربط الحاكم الحالي بأسلافه ويؤكد استمرارية السلالة.

قطنا في العصر البرونزي المتأخر

مع الانتقال إلى العصر البرونزي المتأخر تغير المشهد السياسي في بلاد الشام ظهرت قوى كبرى أصبحت تتنافس على السيطرة على المنطقة، وعلى رأسها مصر والمملكة الحثية وميتاني.

وأصبحت الممالك السورية الصغيرة مضطرة إلى التعامل مع هذه القوى، سواء بالتحالف أو الخضوع أو تغيير الولاء السياسي.

وكانت قطنا واحدة من هذه الممالك التي تأثرت بهذا التحول لم تعد المنافسة بينها وبين جيرانها المحليين هي العامل الوحيد الذي يحدد مستقبلها، بل أصبح الصراع بين الإمبراطوريات الكبرى هو الذي يفرض نفسه على المنطقة.

قطنا ومصر في زمن تحتمس الثالث

خلال القرن الخامس عشر قبل الميلاد، توسعت مصر في بلاد الشام في عهد تحتمس الثالث وخاض المصريون سلسلة من الحملات العسكرية في سورية وبلاد الفلستيين، كان هدفها تثبيت النفوذ المصري ومواجهة القوى المنافسة وكانت قطنا ضمن المجال السياسي الذي تأثر بهذه الحملات.

وتشير المصادر المصرية إلى قطنا في سياق العلاقات والحملات المصرية في سورية، كما تظهر في قائمة المدن والمناطق التي ارتبطت بالنفوذ المصري.

لكن النفوذ المصري لم يكن يعني بالضرورة إدارة مصرية مباشرة لكل مدينة؛ فقد اعتمد المصريون كثيرًا على حكام محليين يحتفظون بمراكزهم مقابل الاعتراف بالسلطة المصرية ودفع الجزية وتقديم الدعم.

تغير ميزان القوى

في الفترة نفسها تقريبًا، كانت ميتاني تزداد قوة في شمال سورية وشمال بلاد الرافدين وأصبحت قطنا تقع بين مصالح القوى الكبرى مصر في الجنوب، وميتاني في الشمال والشرق، والحثيين الذين سيظهر نفوذهم بقوة لاحقًا.

وهكذا أصبحت المملكة أمام عالم سياسي مختلف تمامًا عن العالم الذي عرفته في عهد ملوك العصر البرونزي الأوسط وكان على حكامها أن يتعاملوا مع قوى تفوقهم بكثير من حيث الحجم العسكري والسياسي.

تراجع قطنا

مع اشتداد الصراع بين القوى الكبرى، بدأت قطنا تفقد استقلالها السياسي تدريجيًا وتعرضت المنطقة لتغيرات متلاحقة في النفوذ، وفي النهاية تعرضت المدينة لدمار كبير خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد تقريبًا.

وترتبط نهاية قطنا بتحولات واسعة شهدتها سورية في تلك الفترة، مع صعود الحثيين وانهيار النفوذ الميتاني وتراجع بعض المراكز السياسية القديمة.

لم تعد قطنا بعد ذلك القوة الإقليمية التي كانت عليها في العصر البرونزي الأوسط.

ما الذي بقي من قطنا؟

لم تختفِ قطنا من الذاكرة التاريخية تمامًا، لأن آثارها حفظت جانبًا كبيرًا من قصتها فالقصر الملكي، والمقبرة، واللقى المستوردة، والوثائق، كلها تكشف أن قطنا كانت أكثر من مدينة محلية.

كانت مملكة لها بلاط ملكي، وجيش، وعلاقات دبلوماسية، وشبكة من الاتصالات مع الممالك الأخرى.

وقد كشفت آثارها عن عالم كانت فيه سورية القديمة مرتبطة بمصر وبلاد الرافدين والأناضول وشمال بلاد الشام، وكانت الممالك تتبادل الهدايا والسلع والأفكار، وفي الوقت نفسه تتصارع على الأرض والنفوذ.

قطنا بين الممالك الكبرى

تكشف قصة قطنا عن حقيقة مهمة في تاريخ بلاد الشام القديمة أن الممالك الصغيرة والمتوسطة لم تكن هامشًا في السياسة الدولية.

فملك قطنا كان يتعامل مع ملك ماري، وملك يمحاض، والملك المصري، وقوى الشمال، وكان عليه أن يحافظ على مملكته وسط صراع مستمر على النفوذ.

ولهذا فإن تاريخ قطنا ليس مجرد قصة قصر أثري أو مقبرة ملكية، بل قصة مملكة استطاعت أن تصعد وتفرض نفسها في العصر البرونزي الأوسط، ثم وجدت نفسها لاحقًا محاصرة بين إمبراطوريات أكبر منها.

ومع انهيارها، اختفى أحد المراكز السياسية المهمة في سورية القديمة، لكن ما بقي تحت أنقاض تل المشرفة أعاد إلى الحياة جانبًا من عالمها؛ عالم الملوك والتحالفات والقصور والمقابر، وعالم بلاد الشام الذي كان يتغير باستمرار تحت ضغط القوى الكبرى.

دين قطنا وآلهتها

لم يكن الدين في قطنا مجرد طقوس عامة، بل تركت لنا المملكة أدلة على مجموعة من الممارسات والآلهة، وإن كانت معرفتنا بها أقل من معرفتنا بدين بعض الممالك السورية الأخرى بسبب ندرة النصوص المحلية.

ومن أبرز الآلهة المرتبطة بقطنا نين-إغال (Nin-Egal)، التي عُرفت أيضًا باسم بيلِت-إكَلّيم، أي سيدة القصر. وتظهر قوائم الهدايا التي عُثر عليها في القصر الملكي أنها كانت تحتل مكانة بارزة في الطقوس الملكية، حتى حملت

لقب بيلِت قطنا، أي سيدة قطنا، ولذلك يُنظر إليها بوصفها إحدى أهم الآلهة المرتبطة بالمملكة.

وكانت القوائم نفسها تذكر آلهة الملك، وهو تعبير لا يزال تفسيره موضع نقاش بين الباحثين؛ فقد اقترح بعضهم ارتباطه بآلهة معينة، بينما رأى آخرون أنه قد يشير إلى مجموعة من القوى الإلهية المرتبطة بالأسرة الملكية وأسلافها. ومن الآلهة التي ارتبطت بقطنا أيضًا شمش، إله الشمس، إذ يذكر الملك أكيزي في إحدى رسائله إلى أخناتون إله أبي، وقد ربط بعض الباحثين هذه العبارة بشمش.

كما تظهر عشتار في صلة واضحة بالعائلة الملكية. فالمصادر المرتبطة بماري تشير إلى أن إحدى بنات ملك قطنا كانت مكرسة للإلهة عشتار، وأن ملك ماري زمري-ليم دعا ملك قطنا أموت-بيئيل الثاني للمشاركة في طقوس مرتبطة بها. وهذا يدل على أن عبادة عشتار كانت حاضرة في البيئة الدينية لقطنا وفي العلاقات بين القصرين.

مملكة أمورو المملكة التي وقفت بين مصر والحثيين

في بلاد الشام خلال العصر البرونزي المتأخر ظهرت مملكة أمورو، المعروفة في المصادر باسم عمّورو. وقد أصبحت هذه المملكة واحدة من القوى السياسية المهمة في شمال بلاد الشام، خصوصًا خلال القرن الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد.

دخلت أمورو التاريخ في مرحلة كانت فيها بلاد الشام ساحة تنافس بين إمبراطوريات كبرى، وفي مقدمتها مصر وميتاني والحثيون. ولذلك لم يكن أمام حكامها مجال واسع للحياد؛ فكل تغير في ميزان القوى كان ينعكس مباشرة على مستقبل المملكة.

قامت أمورو في شمال بلاد الشام ووسطها في المنطقة الممتدة بين ساحل البحر المتوسط ووادي العاصي وكان مجالها يتغير مع الزمن تبعاً لقوة ملوكها امتد نفوذها في بعض الفترات جنوباً نحو قادش

وكان مركز المملكة السياسي هو سمور إلا أن موقعها لم يحسم أثرياً بصورة نهائية، التي تُعرف في النصوص المصرية باسم سيمور أو سيمورا، ويرجح كثير من الباحثين ارتباطها بموقع تل كزل في الساحل السوري قرب طرطوس بينما لا يزال تحديد موقعها الأثري بصورة قاطعة موضع نقاش بين الباحثين.

وتشير دراسة حديثة نسبياً لرسائل تل العمارنة إلى أن عزيرو ربما نقل مركزه إلى عرقاتو في سهل عكار بينما كانت سمور مركزاً رئيسياً وأرسل منها عزيرو رسائل أيضاً.

ظهور أمورو

ظهر اسم أمورو بوضوح في المصادر المصرية والحثية والوثائق المسمارية خلال العصر البرونزي المتأخر وكانت المنطقة التي قامت فيها المملكة تضم جماعات محلية وقبائل ومراكز سياسية متعددة، ثم بدأت تتشكل فيها سلطة أكثر تنظيمًا استطاعت أن تفرض نفوذها على مناطق واسعة.

وفي بدايات تاريخها لم تكن أمورو قوة كبرى تستطيع مواجهة مصر أو ميتاني أو الحثيين مباشرة، لكنها استفادت من الصراع بين هذه القوى، وبدأ حكامها ببناء نفوذ مستقل تدريجيًا وهنا ظهر رجل سيصبح واحدًا من أشهر شخصيات تاريخ أمورو عبدي-عشرتا.

عبدي-عشرتا

كان عبدي-عشرتا من أبرز حكام أمورو في القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

ظهر اسمه في رسائل تل العمارنة، وهي مجموعة كبيرة من المراسلات الدبلوماسية التي تعكس الحياة السياسية في بلاد الشام خلال عهد الفراعنة أمنحتب الثالث وأخناتون.

وتكشف رسائل عبدي-عشرتا عن حاكم كان يتحرك بذكاء وسط الفوضى السياسية فقد حاول توسيع نفوذ أمورو على حساب بعض المدن المجاورة، ودخل في صراعات مع حكام محليين، بينما كانت مصر تحاول الحفاظ على نفوذها في المنطقة.

وكانت المدن الشامية في ذلك الوقت ترسل رسائل إلى الفرعون تطلب فيها المساعدة، وتحذر من خصومها، وتتهم بعضها بعضًا بالخيانة.

وفي وسط هذا المشهد ظهر عبدي-عشرتا باعتباره شخصية مزعجة للسلطة المصرية.

تكشف رسائل تل العمارنة عن طبيعة السياسة في بلاد الشام أكثر مما تكشفه الروايات الملكية التقليدية فالحكام المحليون لم يكونوا مجرد موظفين مصريين، بل كانوا ملوكًا وأمراء لديهم جيوشهم ومصالحهم وتحالفاتهم وكانوا يرسلون إلى الفرعون رسائل يطلبون فيها الجنود أو الذهب أو المساعدة العسكرية وفي المقابل، كان بعضهم يتهم حكامًا آخرين بالتمرد أو التعاون مع أعداء مصر ومن خلال هذه الرسائل يظهر عبدي-عشرتا وهو يستغل هذه الانقسامات ليزيد نفوذه.

تمكن عبدي-عشرتا وأتباعه من السيطرة على عدد من المراكز في المنطقة، وهددوا مصالح حكام المدن الساحلية.

وكانت مصر تنظر إلى هذا التوسع باعتباره خطرًا، لأن السيطرة على المدن والطرق في شمال بلاد الشام كانت جزءًا من الحفاظ على النفوذ المصري.

لكن مصر لم تكن دائمًا قادرة على التدخل بسرعة فالمسافة بين مصر وشمال بلاد الشام كانت طويلة، والحاميات المصرية لم تكن موجودة في كل مدينة، كما أن الإمبراطوريات المنافسة كانت تتحرك في الوقت نفسه وهكذا استطاعت أمورو أن تزداد قوة.

استمرت أمورو حتى أواخر العصر البرونزي، لكنها واجهت في النهاية التحولات الكبرى التي ضربت شرق المتوسط.

في نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، تعرضت المنطقة لسلسلة من الاضطرابات والهجرات والحروب التي ارتبطت بما يعرف اليوم بأزمة وانهيار العصر البرونزي المتأخر.

وتضررت الممالك والمدن في بلاد الشام والأناضول وشرق المتوسط.

وفي هذا السياق اختفت أمورو من المشهد السياسي بوصفها مملكة مستقلة مع نهاية العصر البرونزي.

لماذا كانت أمورو مهمة؟

تكمن أهمية أمورو في أنها تكشف كيف استطاعت مملكة صغيرة أن تعيش بين إمبراطوريات أكبر منها بكثير بدأت أمورو وهي قوة محلية تصعد وسط ضعف السيطرة المصرية، ثم دخلت في صراعات مع المدن المجاورة، واستطاعت في عهد عبدي-عشرتا وأزيرو أن توسع نفوذها وبعد صعود الحثيين، غيرت سياستها وتحولت إلى حليف لهم ثم وقفت إلى جانب الحثيين في واحدة من أشهر معارك العالم القديم، معركة قادش.

وهكذا أصبحت أمورو مثالًا واضحًا على السياسة الواقعية في الشرق الأدنى القديم؛ فبقاء المملكة كان يعتمد على قدرتها على قراءة ميزان القوى وتغيير تحالفاتها قبل أن تبتلعها الإمبراطوريات المحيطة بها.

لكن حتى هذه المرونة لم تكن كافية لإنقاذها إلى الأبد فعندما انهار النظام السياسي للعصر البرونزي المتأخر، انهارت معه المملكة التي عاشت عقودًا بين مصر والحثيين، وانتهى فصل مهم من تاريخ بلاد الشام القديم.

مدينة جبيل

كان من أهم أهداف عبدي-عشرتا جبيل، المدينة الساحلية التي كانت تربطها علاقات قديمة بمصر وكان حاكم جبيل ريب-حدّا من أكثر الشخصيات التي أرسلت رسائل إلى الفرعون طلبًا للمساعدة بدأ ريب-حدّا يحذر في رسائله من توسع عبدي-عشرتا، واتهمه بالسيطرة على المدن المحيطة وبتهديد النفوذ المصري وكانت المشكلة بالنسبة إلى ريب-حدّا أن المساعدة المصرية لم تكن تصل بالسرعة التي يريدها.

وبينما كان يطلب الجنود والأسلحة، كان نفوذ عبدي-عشرتا يزداد.

الرسائل تكشف الصراع

تُظهر رسائل ريب-حدّا مدى التوتر الذي أحدثه صعود أمورو.

فقد كان حاكم جبيل يرسل رسالة بعد أخرى إلى الفرعون، يصف فيها الوضع المتدهور ويطلب التدخل لكن الرسائل تكشف أيضًا مشكلة أعمق لم يكن الحكام المحليون متفقين على مواجهة عبدي-عشرتا.

بعضهم كان مستعدًا للتعاون معه، وبعضهم كان يخشاه، وبعضهم كان يرى في ضعفه فرصة للتخلص من منافسين محليين.

وهكذا لم يكن صعود أمورو نتيجة قوة عسكرية فقط؛ بل كان نتيجة استغلال الانقسامات السياسية بين المدن.

الاتهامات الموجهة إلى عبدي-عشرتا

كان خصوم عبدي-عشرتا يصفونه في رسائلهم بأنه رجل خارج عن النظام، وأنه يستولي على المدن بالقوة ويهدد الحكام الموالين لمصر.

لكن قراءة الوثائق بحذر تكشف أن هذه الاتهامات كانت جزءًا من صراع سياسي.

فريب-حدّا، مثلًا، لم يكن يكتب للفرعون مؤرخًا محايدًا؛ كان يطلب النجدة ويحاول إقناع الملك المصري بأن خصمه يمثل خطرًا على مصالح مصر.

ولهذا فإن رسائل تل العمارنة لا تعطينا رواية واحدة للأحداث، بل تجعلنا نرى الصراع من خلال أصوات أطراف مختلفة وهذه واحدة من أهم قيمها التاريخية.

أمورو تتحول إلى قوة

مع استمرار الاضطرابات، تمكن عبدي-عشرتا من توسيع نفوذ أمورو وأصبح لديه عدد أكبر من الرجال والتابعين، وبدأ يتعامل مع مدن ومراكز كانت في السابق خارج سيطرته وأدركت الإدارة المصرية أن المشكلة لم تعد مجرد تمرد محلي صغير، بل ظهور قوة جديدة في شمال بلاد الشام.

لكن مصر لم تكن قادرة على حسم الأمر بسرعة فكان عليها أن تتعامل مع عدد كبير من الحكام والخصومات المحلية، وفي الوقت نفسه تراقب القوى الكبرى المنافسة وهكذا حصل عبدي-عشرتا على الوقت الذي احتاجه لتثبيت نفوذه.

نهاية عبدي-عشرتا

في مرحلة لاحقة تراجعت قوة عبدي-عشرتا، وتوقف صعوده بالطريقة التي كان قد بدأ بها وتختلف تفاصيل نهايته في المصادر، لكن المؤكد أن أمورو لم تختفِ بعده بل انتقلت القيادة إلى جيل جديد، وكان ابنه أزيرو أكثر شخصية شهرة في تاريخ المملكة.

ومع أزيرو دخلت أمورو مرحلة أخطر؛ لأن العالم السياسي المحيط بها كان يتغير بسرعة، وكانت قوة جديدة تظهر من الشمال الحثيون.

أزيرو الرجل الذي اختار الحثيين

بعد عبدي-عشرتا ظهر ابنه أزيرو، الذي أصبح أهم حكام أمورو وأكثرهم شهرة كان أزيرو سياسيًا شديد البراغماتية، وعاش في زمن بدأت فيه موازين القوى تتغير بصورة خطيرة.

كانت مصر لا تزال تدعي السيادة على أجزاء واسعة من بلاد الشام، لكن الحثيين كانوا يتقدمون من الشمال بقيادة الملك شوبيلوليوما الأول.

وجد أزيرو نفسه بين قوتين عظميين وكان عليه أن يختار هل يبقى إلى جانب مصر، أم يعترف بالنفوذ الحثي؟

إذا بقي تابعًا لمصر، فقد يواجه الحثيين وحده.

وإذا انضم إلى الحثيين، فقد يخسر الدعم المصري ويصبح عدوًا للسلطة التي كانت تسيطر على أجزاء واسعة من بلاد الشام.

لكن أزيرو اختار في النهاية مصلحة أمورو وانتقل إلى الجانب الحثي.

أزيرو ومصر

في البداية دخل أزيرو في علاقة مع الإدارة المصرية وتتهمه بعض رسائل تل العمارنة بأنه تسبب في اضطرابات واستولى على مدن مرتبطة بالنفوذ المصري ثم استُدعي إلى مصر أو احتُجز فيها فترة من الزمن، قبل أن يعود إلى شمال بلاد الشام.

وتشير الوثائق إلى أنه قدم نفسه باعتباره حليفًا لمصر، لكن تحركاته السياسية كانت تكشف أنه يبحث عن مصلحة مملكته في المقام الأول ومع تقدم الحثيين، بدأ موقفه يتغير.

أمورو والحثيون

عندما توسع شوبيلوليوما الأول في سورية، أصبح النفوذ الحثي أقرب إلى أمورو وفي النهاية اعترف أزيرو بالتبعية للملك الحثي، وأصبحت أمورو جزءًا من النظام السياسي الذي بناه الحثيون في شمال بلاد الشام وهكذا انتقلت المملكة من المجال المصري إلى المجال الحثي.

لم يكن هذا التحول مجرد تغيير في اسم الحاكم الأعلى؛ فقد غيّر موقع أمورو السياسي بالكامل فبعد أن كانت المملكة تحاول مقاومة النفوذ المصري، أصبحت حليفًا مهمًا للحثيين في صراعهم مع مصر.

أمورو في عهد شوبيلوليوما

استفاد الحثيون من موقع أمورو، لأنها كانت تقع في منطقة مهمة بين مراكز النفوذ المصرية والحثية وأصبحت المملكة قاعدة سياسية وعسكرية مهمة في النظام الحثي في سورية.

وكان على ملك أمورو أن يحافظ على ولائه للحثيين، بينما يواجه في الوقت نفسه ممالك محلية مرتبطة بمصر وبذلك تحولت أمورو من مملكة تبحث عن الاستقلال وسط صراع القوى إلى دولة حليفة للإمبراطورية الحثية.

أمورو في عهد ملكها بنتشينا

من ملوك أمورو في هذه المرحلة بنتشينا، الذي حكم بعد أزيرو وفي عهده استمرت المملكة في المجال الحثي، لكن العلاقات مع مصر لم تختفِ تمامًا.

وكان الصراع بين مصر والحثيين يزداد حدة، خصوصًا بعد أن أصبح سيتي الأول ثم ابنه رمسيس الثاني يعملان على استعادة النفوذ المصري في سورية وأصبحت أمورو جزءًا من هذا الصراع الكبير.

أمورو ورمسيس الثاني

في عهد رمسيس الثاني أصبحت أمورو إحدى النقاط المهمة في المواجهة بين مصر والحثيين كان ملكها في ذلك الوقت بنتشينا، الذي كان مواليًا للحثيين وعندما بدأ رمسيس حملاته في سورية، حاول استعادة المناطق التي خرجت من النفوذ المصري وكانت أمورو من أهم الممالك التي وقفت في الجانب الحثي وهكذا أصبحت المملكة الصغيرة لاعبًا في مواجهة إمبراطوريتين كبيرتين.

معركة قادش

وصل الصراع إلى ذروته في معركة قادش، التي وقعت في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ويرجح تأريخها إلى نحو ١٢٧٤ ق.م. في التسلسل الزمني التقليدي.

قاد رمسيس الثاني الجيش المصري، بينما قاد الملك الحثي مواتلي الثاني قواته وكان ملك أمورو بنتشينا في المعسكر الحثي.

دارت المعركة حول مدينة قادش، وكانت من أشهر معارك العصر البرونزي.

ادعى رمسيس في نقوشه تحقيق النصر، بينما تشير الأدلة إلى أن المعركة لم تؤدِ إلى إخضاع الحثيين أو استعادة مصر للسيطرة الكاملة على شمال سورية وبقيت أمورو في الجانب الحثي.

معاهدة السلام

بعد سنوات من الصراع بين مصر والحثيين، تغيرت الظروف السياسية وانتهى الأمر بإبرام معاهدة سلام بين رمسيس الثاني والملك الحثي حاتوسيلي الثالث وتُعد هذه المعاهدة من أشهر المعاهدات المعروفة من العالم القديم وكانت أمورو جزءًا من النظام السياسي الحثي الذي أعيد تثبيته بعد الصراع وهكذا انتقلت المملكة من كونها ساحة للصراع إلى إحدى الدول التابعة للنظام الحثي في سورية.

ما تكشفه أمورو عن السياسة القديمة

قصة أمورو تكشف أن الممالك الصغيرة لم تكن مجرد ضحايا للإمبراطوريات الكبرى فعبدي-عشرتا استطاع استغلال الانقسامات المحلية ليبني قوة جديدة.

وأزيرو استطاع أن يغيّر تحالف المملكة عندما تغير ميزان القوى.

وبنتشينا حافظ على هذا الخيار عندما أصبح الحلف الحثي هو المسيطر.

لقد كان ملوك أمورو يحاولون حماية مملكتهم بوسائل مختلفة القوة، والتحالف، والمفاوضات، والمراسلات، وأحيانًا تغيير الولاء.

وهذه السياسة هي التي أبقت أمورو حاضرة في المشهد السياسي لعدة أجيال.

نهاية أمورو

لم تستمر أمورو إلى الأبد مع نهاية العصر البرونزي المتأخر بدأت شبكة الممالك التي حكمت بلاد الشام والشرق الأدنى تتعرض لانهيار واسع.

وتراجعت الإمبراطوريات القديمة، ودُمرت مدن كثيرة، واختفت ممالك كانت قد استمرت قرونًا.

وفي هذه التحولات اختفت أمورو من السجلات بوصفها مملكة مستقلة، وانتهى معها حكم الأسرة التي جعلتها قوة معروفة في شمال بلاد الشام.

لكن قصتها بقيت محفوظة في الألواح والرسائل فمن خلال رسائل تل العمارنة نستطيع أن نتابع صعود عبدي-عشرتا، وخوف خصومه منه، ثم صعود ابنه أزيرو، واحتكاكه بمصر، وانتقاله إلى المعسكر الحثي.

وهكذا لم تترك أمورو وراءها قصورًا وآثارًا فقط، بل تركت شيئًا أكثر ندرة سجلًا مكتوبًا للصراع السياسي الذي عاشته المملكة وهي تحاول أن تبقى واقفة بين القوى الكبرى.

قادش المدينة التي سبقت المعركة

قبل أن تصبح قادش اسمًا مرتبطًا بإحدى أشهر معارك العالم القديم، كانت مدينة ومركزًا سياسيًا له تاريخه الخاص.

ظهرت قادش في المصادر القديمة باسم قادش أو كينزا، وكانت من المراكز المهمة في بلاد الشام خلال العصر البرونزي المتأخر. ارتبطت قادش بالموقع المعروف اليوم باسم تل النبي مند، إلى الجنوب الغربي من حمص، قرب نهر العاصي. في المنطقة التي أصبحت لاحقًا جزءًا من المجال السوري.

كما أن اسم المدينة نفسه مرتبط بجذر سامي يحمل معنى القداسة، ولم تكن شهرة قادش نتيجة المعركة وحدها؛ فقد كانت قبلها بوقت طويل جزءًا من شبكة سياسية تتنافس فيها الممالك المحلية على النفوذ، بينما تحاول مصر وميتاني والحثيون توسيع سيطرتها على بلاد الشام.

قادش في العصر البرونزي

كانت قادش مركزًا لمملكة محلية، وكان ملكها يتحكم في المدينة والأراضي المحيطة بها ولا نملك سلسلة كاملة من أسماء ملوكها كما نملكها في بعض الممالك الأخرى، لكن المصادر المصرية والوثائق المرتبطة بسورية تشير إلى حضور قادش السياسي في العصر البرونزي المتأخر.

وكانت المدينة مرتبطة بعالم الممالك السورية الذي امتد من الساحل إلى الداخل، وكانت علاقاتها تتغير بحسب القوة المسيطرة في المنطقة.

قادش ومصر

دخلت قادش في مجال النفوذ المصري خلال مرحلة توسع مصر في بلاد الشام وكان الحكام المحليون يحتفظون عادةً بسلطتهم الداخلية، لكنهم كانوا يعترفون بالسيادة المصرية ويقدمون الجزية أو يلتزمون بالولاء للفرعون.

وفي هذه المرحلة ظهرت قادش ضمن المدن التي ارتبطت بالنظام المصري في سورية لكن هذا الولاء لم يكن ثابتًا إلى الأبد.

فمع تغير ميزان القوى، بدأت مدن وممالك كثيرة تبحث عن حلفاء جدد.

ظهور النفوذ الميتاني

مع صعود ميتاني في شمال سورية، تغيرت الخريطة السياسية أصبحت مدن كثيرة تقع بين النفوذ المصري القادم من الجنوب والنفوذ الميتاني في الشمال وكانت قادش من المدن التي تأثرت بهذا الصراع.

ولم تكن القضية مجرد اختيار حاكم لجهة سياسية؛ فكل انتقال للولاء كان يمكن أن يعني حربًا أو حصارًا أو تدخلًا عسكريًا.

وهكذا أصبحت قادش مدينة ذات قيمة أكبر من حجمها، لأن السيطرة عليها كانت تمنح صاحبها موقعًا مهمًا في الصراع على سورية الداخلية.

قادش والملك شوتارنا

ترتبط قادش في بعض مراحل تاريخها بنفوذ مملكة ميتاني، التي كان ملوكها يتدخلون في شؤون الممالك السورية وكانت العلاقات بين الممالك المحلية وميتاني تقوم على التحالف والتبعية، ولم تكن جميع المدن تحافظ على الدرجة نفسها من الاستقلال لكن نفوذ ميتاني بدأ يتراجع لاحقًا أمام القوة الحثية الصاعدة وهنا بدأت قادش تدخل مرحلة جديدة من تاريخها.

الحثيون يدخلون المشهد

مع توسع الدولة الحثية في سورية خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد، تغيرت التحالفات بدأت الممالك السورية تتحول تدريجيًا من المجال الميتاني إلى المجال الحثي، أو تحاول المحافظة على استقلالها بين القوى المتنافسة.

وكانت قادش من المدن التي تأثرت بهذه التحولات وبحلول القرن الثالث عشر قبل الميلاد أصبحت المدينة مرتبطة بالمعسكر الحثي، وكان حاكمها جزءًا من شبكة الحكام الذين اعترفوا بسلطة الملك الحثي.

وهنا وصل تاريخ قادش إلى اللحظة التي جعلتها مشهورة في كتب التاريخ.

قادش قبل المواجهة الكبرى

قبل وصول الجيوش المصرية إلى المنطقة، كانت قادش قد أصبحت بالفعل نقطة سياسية وعسكرية مهمة فوجودها على أحد الطرق التي تربط شمال سورية بجنوبها جعلها هدفًا استراتيجيًا.

وكانت السيطرة عليها تعني امتلاك موقع يمكن من خلاله مراقبة التحركات العسكرية والتحكم في المجال المحيط ولهذا لم يكن اختيار قادش ساحة للمواجهة الكبرى أمرًا عشوائيًا فالمدينة كانت تحمل قيمة عسكرية حقيقية قبل أن تصبح رمزًا تاريخيًا.

قادش في زمن بنتشينا

ارتبطت قادش خلال هذه المرحلة بمملكة أمورو المجاورة، التي كان ملكها بنتشينا وكانت أمورو قد أصبحت في المعسكر الحثي، ولذلك كانت قادش جزءًا من شبكة سياسية وعسكرية متحالفة مع الحثيين.

وبذلك أصبحت المنطقة المحيطة بقادش مركزًا للقوى التي كانت تواجه التوسع المصري لكن المدينة لم تكن مجرد قاعدة عسكرية؛ فقد كانت لها سلطة محلية وحاكم ونظام سياسي خاص بها.

المعركة التي غيّرت شهرة قادش

جاءت الجيوش المصرية والحثية إلى المنطقة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ودارت المعركة الكبرى التي يعرفها التاريخ باسم معركة قادش.

لكن تفاصيل هذه المعركة، وخطة رمسيس الثاني، وتحركات الجيش الحثي، والنتائج السياسية التي أعقبتها، تناولناها في الجزء السابق، ولذلك لن نعيدها هنا.

المهم بالنسبة إلى تاريخ المدينة أن المعركة أكدت شيئًا كان معروفًا قبلها قادش كانت موقعًا لا تريد أي قوة كبرى أن تتركه لخصمها.

فالصراع عليها لم يكن بسبب اسمها الذي سيشتهر لاحقًا، وإنما بسبب قيمتها السياسية والعسكرية في قلب بلاد الشام.

بعد معركة قادش

لم تؤدِّ المعركة إلى نهاية قادش فورًا استمرت المنطقة في الخضوع لتغيرات سياسية وعسكرية، وظلت الممالك المحلية مرتبطة بالقوى الكبرى التي تتنافس على سورية ومع مرور الوقت أصبحت الدولة الحثية أكثر حضورًا في المنطقة، بينما استقرت العلاقات المصرية الحثية لاحقًا ضمن نظام سياسي جديد لكن قادش نفسها لم تعد تحتفظ بالدور الإقليمي الذي جعلها هدفًا للصراع بين الإمبراطوريات.

نهاية المدينة

في نهاية العصر البرونزي المتأخر تعرضت مناطق واسعة من بلاد الشام لاضطرابات كبيرة انهارت مراكز سياسية عديدة، وتعرضت مدن للدمار، وتغيرت طرق التجارة والهجرة والاستقرار.

وفي هذه المرحلة تراجعت قادش واختفت أهميتها السياسية القديمة.

وهكذا انتهت قصة مدينة كانت في وقت من الأوقات مركزًا لمملكة محلية، ثم أصبحت نقطة استراتيجية تتنافس عليها الإمبراطوريات.

قادش أبعد من المعركة

لو عرفنا قادش فقط من خلال المعركة الشهيرة، فسوف نرى مدينة ظهرت فجأة على الخريطة ثم اختفت بعدها لكن تاريخها الحقيقي أقدم من ذلك كانت قادش جزءًا من عالم الممالك السورية، وعاشت تغيرات النفوذ بين مصر وميتاني والحثيين، وكان حكامها يتعاملون مع القوى الكبرى من أجل الحفاظ على مكانتهم ثم جاءت المعركة التي جعلت اسم المدينة يدخل كتب التاريخ، لكنها لم تكن بداية تاريخ قادش ولا نهايته.

لقد كانت إحدى حلقات تاريخ طويل لمدينة عاشت في منطقة لم تعرف الاستقرار السياسي الدائم، وكان مصيرها مرتبطًا بمصير الممالك والإمبراطوريات التي تنافست على بلاد الشام.

ومع انهيار نظام العصر البرونزي المتأخر، تراجعت قادش، لكن اسمها بقي حيًا، لا لأنها كانت أعظم مدن بلاد الشام، بل لأنها أصبحت مسرحًا لواحدة من أشهر المواجهات العسكرية في تاريخ العالم القديم.

أمق سهل العمق

لم تكن كل المراكز المهمة في بلاد الشام ممالك مستقلة؛ فبعضها كان أقاليم جغرافية لعبت دورًا سياسيًا بسبب موقعها ومواردها ووقوعها بين الممالك المتنافسة. ومن أبرز هذه المناطق أمق، أو سهل العمق، في شمال غرب بلاد الشام يقع سهل العمق في المنطقة الواقعة حول مجرى العاصي الأعلى، إلى الجنوب الشرقي من جبال الأمانوس، وتمتد سهوله الخصبة في المنطقة التي أصبحت اليوم جزءًا من جنوب تركيا قرب الحدود السورية. وقد جعل موقعه بين شمال سورية والأناضول أحد الممرات المهمة للحركة بين المنطقتين. كما ارتبطت المنطقة بمدينة ألالاخ، التي كانت من أهم مراكزها السياسية في العصر البرونزي. وأصبحت عاصمة مملكة موكيش خلال العصر البرونزي المتأخر.

أمق في عصر العمارنة

تظهر أمق بوضوح في رسائل تل العمارنة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، عندما دخل شمال بلاد الشام في مرحلة مضطربة بسبب الصراع بين القوى المصرية والحثية، وانهيار النفوذ الميتاني في المنطقة وتكشف إحدى الرسائل أن مدنًا في أمق كانت ما تزال تعد نفسها ضمن المدن الخاضعة للملك المصري، بينما كانت قوات مرتبطة بالحيثيين وحلفائهم تهاجمها وتحرق مدنًا فيها. ويظهر في الرسالة حاكم إنشاشي، عبدِ-ريشا، وهو يطلب من الفرعون إرسال قوات تساعدهم على استعادة المدن التي فقدوها.

وهذه الرسالة تكشف أهمية أمق أكثر من أي وصف عام؛ فالمنطقة لم تكن مجرد سهل زراعي، بل كانت ساحة للصراع على النفوذ في شمال بلاد الشام.

موقع أمق بين القوى المتنافسة

كانت أمق تقع في منطقة تجعلها متأثرة بكل تحول سياسي كبير في الشمال.

فمن جهة، كانت مرتبطة بالمراكز السورية، ومن جهة أخرى كانت مفتوحة على الأناضول، ولذلك أصبحت عرضة للصراع عندما بدأ الحثيون في توسيع نفوذهم جنوبًا ومع تقدم الحثيين في سورية، تغير وضع المدن الواقعة في أمق، وانتقلت المنطقة تدريجيًا إلى النظام السياسي الجديد الذي فرضته القوة الحثية وهكذا تكشف أمق جانبًا مختلفًا من تاريخ بلاد الشام أحيانًا لم تكن السيطرة على مملكة كبيرة هي الهدف، بل السيطرة على إقليم استراتيجي يربط عدة مناطق ببعضها.

سهل العمق

ارتبط اسم أمق بالسهل الخصيب الذي حمل الاسم نفسه، واستمر هذا الاسم الجغرافي في الذاكرة حتى العصر الحديث.

وقد ساعدت خصوبة السهل ومياهه وموقعه على استقرار السكان فيه منذ عصور مبكرة، بينما جعلته طرقه الطبيعية جزءًا من شبكة الحركة بين الساحل والداخل وشمال سورية والأناضول.

ولهذا كان سهل العمق أكثر من مجرد منطقة زراعية؛ كان ممرًا طبيعيًا ومجالًا للتنافس السياسي.

وهذه المراكز لم تكن منفصلة عن بعضها، بل كانت ترتبط بطرق التجارة والحرب والتحالفات، ولذلك فإن فهم أمق يساعدنا على فهم البيئة السياسية التي ظهرت فيها ممالك مثل أمورو وتونيب وغيرها.

مملكة بالستين / بالاستين

ظهرت بالستين، التي ترد في الدراسات الحديثة بصيغ مثل Palistin أو Palestine بحسب القراءة المقترحة للنقوش، بوصفها أحد الكيانات السياسية التي نشأت في شمال سورية خلال المرحلة الانتقالية بين أواخر العصر البرونزي وبدايات العصر الحديدي. وترجع أهميتها إلى أنها تساعد على فهم الخريطة السياسية التي تشكلت بعد انهيار النظام الذي كانت تهيمن عليه القوى الكبرى في العصر البرونزي المتأخر، ولا سيما الحثيين.

ارتبطت بالستين بصورة خاصة بمنطقة سهل العمق وشمال سورية، وتُعد تل تاينات قرب أنطاكية من أهم المواقع المرتبطة بها. وقد كشفت النقوش والآثار في المنطقة عن وجود تقليد ملكي محلي استمر في مرحلة مبكرة من العصر الحديدي، في وقت كانت فيه الممالك السورية والأناضولية تعيد تشكيل نفوذها بعد انهيار الإمبراطورية الحثية.

ويظهر اسم بالستين بصورة بارزة في نقش للملك تايتا، الذي عُثر على نقوش مرتبطة به في شمال سورية. ويُعد تايتا أبرز حاكم معروف ارتبط بهذا الكيان، وتصفه النقوش بصفته ملكًا صاحب سلطة واسعة. وقد دفع ذلك الباحثين إلى اعتبار بالستين مملكة إقليمية مهمة في شمال سورية، وليس مجرد مدينة صغيرة.

وتكتسب شخصية تايتا أهمية خاصة لأن النقوش المرتبطة به تشير إلى سيطرة سياسية واسعة، وتربط حكمه بمناطق متعددة في شمال سورية. كما عُثر على نقش آخر مرتبط به في منطقة مهردة قرب حماة.

ولا تزال طبيعة العلاقة بين بالستين وبين الممالك التي ظهرت بعدها في شمال سورية موضع نقاش. ومن أبرز الأسئلة المطروحة علاقة بالستين بمملكة باتين/أونقي التي أصبحت عاصمتها كينالوا في تل تاينات نفسها. فهناك احتمال أن تكون بالستين مرحلة سياسية مبكرة سبقت أونقي، أو أن تكونا كيانين متداخلين في منطقة واحدة خلال فترات مختلفة. ولذلك لا يصح تقديم الانتقال بينهما باعتباره حقيقة محسومة دون الإشارة إلى هذا النقاش.

ويبدو أن المملكة نشأت في بيئة سياسية شديدة التغير. فقد أدى انهيار الدولة الحثية في نهاية العصر البرونزي إلى فراغ سياسي في شمال سورية، وظهرت خلال القرنين الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد ممالك محلية جديدة حافظ بعضها على التقاليد السياسية واللغوية والثقافية التي ورثتها عن العصر الحثي المتأخر. وكانت بالستين واحدة من هذه القوى المبكرة.

كما تكشف آثار المنطقة عن استمرار استخدام الكتابة والرموز الحثية اللووية في شمال سورية خلال هذه المرحلة. وهذا يوضح أن سقوط الإمبراطورية الحثية لم يعنِ اختفاء ثقافتها السياسية فورًا؛ بل استمرت عناصر منها داخل ممالك محلية جديدة، ثم امتزجت تدريجيًا بالتقاليد الآرامية التي أصبحت أكثر حضورًا في سورية خلال العصر الحديدي.

وكان موقع بالستين ذا أهمية استراتيجية كبيرة. فقد وقعت في منطقة سهل العمق، وهي منطقة خصبة تربط شمال سورية بالساحل وبالممرات المؤدية إلى الأناضول. كما كانت الطرق القادمة من حلب والمناطق الداخلية تستطيع الوصول عبر هذه المنطقة إلى موانئ الساحل والممرات الجبلية الشمالية. ولذلك فإن السيطرة على هذا المجال كانت تمنح المملكة قدرة على التحكم في الحركة بين الداخل السوري والأناضول والساحل.

ولا نملك سلسلة كاملة من ملوك بالستين، ولا تاريخًا متصلًا للمملكة يسمح بإعادة بناء مؤسساتها أو حدودها سنة بعد أخرى، ومع تطور النظام السياسي في شمال سورية ظهرت ممالك أخرى أكثر وضوحًا في المصادر الآشورية، وفي مقدمتها باتين/أونقي، إلى جانب ممالك مثل أرفاد وسمأل وغيرها. ومن هنا تكتسب بالستين أهميتها؛ فهي تمثل مرحلة مبكرة من تشكل النظام السياسي الذي سيظهر لاحقًا في صورة الممالك السورية-الحثية والآرامية التي تعاملت معها آشور.

ولا يبدو أن بالستين استمرت كقوة مستقلة حتى العصر الذي أصبحت فيه السجلات الآشورية أكثر تفصيلًا. ويُحتمل أن تكون سلطتها قد تحولت أو اندمجت ضمن كيانات سياسية لاحقة، لكن طبيعة هذا التحول ليست محسومة بصورة نهائية. إن اسمها يختفي من المشهد السياسي المعروف مع ظهور كيانات شمال سورية اللاحقة.

وتكمن أهمية بالستين في تاريخ بلاد الشام في أنها تمثل إحدى الممالك المبكرة التي ظهرت في شمال سورية بعد انهيار النظام الحثي، وتكشف النقوش المرتبطة بالملك تايتا عن استمرار تقليد الحكم الملكي اللووي في المنطقة، بينما تكشف صلاتها المحتملة بسهل العمق وحماة والمراكز الشمالية عن شبكة سياسية كانت تتشكل قبل بروز الممالك الآرامية في صورتها المعروفة.

مملكة باتين / أونقي

كانت مملكة باتين، التي عُرفت في المصادر الآشورية باسم أونقي، من أبرز الممالك التي قامت في شمال سورية خلال العصر الحديدي. وامتدت أراضيها في المنطقة الواقعة حول سهل العمق شمال غرب سورية، بين جبال الأمانوس والداخل السوري، وكانت عاصمتها كينالوا، التي يُرجح تحديد موقعها في تل تاينات في سهل العمق. وقد منحها هذا الموقع أهمية استثنائية، لأنها كانت تقع عند ملتقى الطرق التي تصل بلاد الرافدين بشمال سورية والأناضول والساحل المتوسطي.

نشأت باتين في البيئة السياسية التي أعقبت انهيار النظام الذي فرضته الإمبراطورية الحيثية على شمال سورية. وكانت المنطقة قد شهدت قبل ذلك ممالك ومراكز قديمة، من بينها موكيش وألالاخ، ثم ظهرت بعد انهيار السلطة الحيثية كيانات جديدة حافظت على كثير من التقاليد اللووية والحيثية، قبل أن يزداد الحضور الآرامي فيها مع مرور الزمن. ويرتبط تاريخ باتين ارتباطًا وثيقًا بهذه المرحلة الانتقالية، ولذلك فهي تمثل إحدى الحلقات الأساسية بين ممالك العصر البرونزي المتأخر وممالك العصر الحديدي في شمال سورية.

وتظهر علاقة باتين بالمجال الحلبي بصورة واضحة عند النظر إلى الخريطة السياسية للمنطقة. فقد كانت تقع إلى الشمال الغربي من حلب، وكانت الأراضي الممتدة بين حلب وسهل العمق جزءًا من شبكة الطرق التي تصل الداخل السوري بالبحر المتوسط والأناضول. كما ارتبطت المملكة بمناطق إلى الجنوب منها، الأمر الذي جعلها طرفًا في التوازن السياسي بين حلب وأرفاد وحماة والممالك الواقعة شمالًا وغربًا.

وكانت كينالوا مركز المملكة السياسي. وتكشف آثار تل تاينات عن مدينة منظمة تضم مباني إدارية وقصورًا ومنشآت دينية، وهو ما يتناسب مع مكانتها كعاصمة لمملكة إقليمية. كما تظهر المنطقة استمرارًا قويًا للتقاليد اللووية في بدايات العصر الحديدي، ثم ازدياد الحضور الآرامي في المراحل اللاحقة. وقد بقيت المملكة مرتبطة بالتراث السياسي للحيثيين الجدد، في الوقت الذي بدأت فيه الآرامية والثقافة الآرامية تكتسبان حضورًا متزايدًا في شمال سورية.

ومن أبرز المراكز التابعة لباتين خَزَازو، التي يُرجح تحديدها بمدينة عزاز الحالية شمال حلب. وتكشف الإشارات الآشورية إلى خزازو عن امتداد المملكة باتجاه المنطقة الواقعة بين سهل العمق وحلب، كما تذكر المصادر الآشورية أريبوا في سياق أراضي باتين، ويرتبط موقعها بمنطقة إدلب أو محيطها.

دخلت باتين مبكرًا في مجال اهتمام الإمبراطورية الآشورية الحديثة. ففي القرن التاسع قبل الميلاد بدأت الحملات الآشورية تتحرك غربًا بهدف إخضاع الممالك السورية والسيطرة على طرق التجارة. وفي عهد الملك آشور ناصر بال الثاني وصل الجيش الآشوري إلى أراضي باتين، وعبر منطقة نهر العفرين باتجاه سهل العمق، ثم وصل إلى كينالوا، عاصمة المملكة، حيث كان يحكمها الملك لوبارنا الأول. واضطر لوبارنا إلى الخضوع للملك الآشوري ودفع الجزية، كما أُجبر على دعم الجيش الآشوري. وتظهر هذه الحملة بوضوح أن باتين كانت من القوى التي وقعت في مقدمة الاحتكاك بين آشور والممالك السورية. لم يؤدِّ الخضوع الأول إلى إنهاء استقلال المملكة. فقد بقيت باتين قائمة خلال القرن التاسع قبل الميلاد، واستمر ملوكها في إدارة أراضيها مع الاعتراف بدرجات متفاوتة بالنفوذ الآشوري. ومن بين الحكام

المعروفين سوبيلوليوما وحلبارونتيا، اللذين تظهر أسماؤهما في المصادر الآشورية بصيغ مختلفة، ثم لوبارنا الثاني الذي حكم في النصف الأول من القرن الثامن قبل الميلاد. وكانت المملكة خلال هذه الفترة تتحرك بين الحفاظ على استقلالها ومحاولة تجنب الصدام المباشر مع آشور.

وكانت العلاقات مع آشور شديدة الحساسية، لأن موقع باتين جعلها ذات قيمة استراتيجية للإمبراطورية. فمن أراضيها كانت الطرق تتجه نحو الأناضول، ومن جهة أخرى يمكن الوصول منها إلى الساحل المتوسطي. كما أن السيطرة عليها كانت تسمح لآشور بمراقبة الطريق الممتد من شمال سورية إلى الفرات والداخل، ولذلك لم يكن إخضاعها مجرد توسع إقليمي، بل جزءًا من مشروع آشوري أكبر للسيطرة على طرق الحركة والتجارة في غرب آسيا.

وفي القرن الثامن قبل الميلاد بدأت بنية المملكة تتغير. ومع وصول تغلاث فلاسر الثالث إلى الحكم، اتجهت آشور إلى سياسة أكثر مباشرة في ضم الممالك السورية وتحويلها إلى أقاليم خاضعة لها. وفي هذه المرحلة أصبح اسم أونقي أكثر حضورًا في المصادر الآشورية، وارتبط ذلك بتحولات سياسية وديموغرافية شهدتها المنطقة، من بينها ازدياد الحضور الآرامي داخل المملكة. وتشير دراسة تاريخية متخصصة إلى أن اسم باتين استُخدم في السجلات الآشورية حتى نحو ٧٤٥ ق.م.، ثم ظهر اسم أونقي خلال المرحلة الأخيرة من استقلال المملكة، قبل أن تنتهي المملكة نهائيًا بالضم الآشوري سنة ٧٣٨ ق.م.

وفي عهد تغلات فلاسر الثالث فقدت أونقي استقلالها السياسي، وأُدخلت أراضيها في النظام الإداري الآشوري. وبذلك انتهى وجود المملكة بوصفها

دولة مستقلة، لكن موقع كينالوا والمنطقة المحيطة بها احتفظ بأهميته الإدارية والاقتصادية ضمن الإمبراطورية الآشورية.

ولم تكن أهمية باتين عسكرية فقط؛ فقد استفادت من موقعها في منطقة غنية زراعيًا، ومن قربها من طرق التجارة. وكان سهل العمق من المناطق الخصبة في شمال سورية، كما أن اتصاله بالأناضول والبحر المتوسط جعله نقطة تجمع للسلع والأفكار والسكان. ولذلك أصبحت المملكة واحدة من المراكز التي التقت فيها التقاليد السورية واللووية والآرامية، وهو ما يفسر التنوع الثقافي الذي يظهر في آثارها ونقوشها.

وتكتسب باتين أهمية خاصة في تاريخ حلب وحوض العاصي لأن المملكة كانت تقع في منطقة الاتصال بين هذه الأقاليم. فهي لم تكن دولة بعيدة عن عالم حلب، بل كانت إحدى القوى التي شاركت في تشكيل الخريطة السياسية لشمال سورية. كما أن امتداد نفوذها جنوبًا نحو مناطق مرتبطة بالعاصي، ووجود مراكز مثل أريبوا في المجال الجنوبي للمملكة، يجعلها جزءًا من شبكة سياسية تتقاطع فيها طرق حلب والعاصي والبحر المتوسط.

ومع سقوط باتين/أونقي أمام آشور لم تختفِ المنطقة من التاريخ، بل انتقلت إلى مرحلة جديدة أصبحت فيها آشور هي القوة المسيطرة. وهكذا تمثل المملكة مرحلة مهمة من تاريخ شمال سورية من مملكة ذات جذور لووية وحيثية جديدة إلى كيان تتزايد فيه العناصر الآرامية، ثم إلى إقليم داخل الإمبراطورية الآشورية. وتبقى باتين/أونقي من أهم الممالك التي تساعد على فهم التحولات السياسية في شمال سورية، لأنها تقع في نقطة تلتقي فيها حلب وسهل العمق والعاصي والفرات والأناضول والساحل.

تونيب المدينة التي تصارعت عليها القوى الكبرى

لم تكن تونيب من المدن التي تركت وراءها سجلاً تاريخيًا كاملًا، ولذلك فإن إعادة بناء قصتها تعتمد على ما ورد عنها في الوثائق المصرية والنصوص المسمارية القديمة، وعلى الإشارات المتفرقة التي تظهر فيها عبر قرون مختلفة لكن هذه الإشارات تكشف حقيقة مهمة تونيب لم تكن مدينة هامشية.

فقد كانت مركزًا سياسيًا له حاكمه ومصالحه، ودخلت في الصراع بين القوى الكبرى التي تنافست على شمال بلاد الشام خلال العصر البرونزي المتأخر.

ويُرجح أن مركزها كان في وادي العاصي، ويُربط موقعها عادةً بمنطقة تل عشرنة، في سهل الغاب شمال غرب حماة لكن تحديد موقعها الأثري بصورة نهائية ما يزال غير محسوم.

تونيب في زمن النفوذ المصري

تظهر تونيب في المصادر المصرية بوصفها مدينة تقع ضمن المجال السياسي السوري الذي كانت مصر تسعى إلى السيطرة عليه.

وكانت الممالك والمدن في تلك المنطقة تتعامل مع مصر بدرجات مختلفة من التبعية أو التحالف، بحسب الظروف.

لكن تونيب لم تكن مدينة ساكنة تنتظر أوامر الفرعون؛ فقد كان لها حاكم وسكان ومصالح سياسية، وكانت تتأثر بما يجري حولها.

أهم لحظات ظهور تونيب في الوثائق تأتي في فترة تل العمارنة.

ففي الرسائل التي تبادلها حكام بلاد الشام مع البلاط المصري، يظهر اسم تونيب في سياق الصراع على النفوذ.

ومن اللافت أن حاكم تونيب نفسه أرسل إلى الفرعون، مطالبًا بالتدخل ومذكرًا بالعلاقة القديمة بين مدينته ومصر.

وكانت الرسالة تحمل معنى سياسيًا واضحًا تونيب لا تريد أن تُترك لمصيرها بينما تتغير موازين القوى في سورية.

فالحكام المحليون كانوا يعرفون أن مصر تدعي السيادة على المنطقة، ولذلك كانوا يحتجون عندما لا تتدخل لحمايتهم لكنهم في الوقت نفسه كانوا يدركون أن الاعتماد على مصر قد لا يكون كافيًا.

لماذا كانت تونيب مهددة؟

كانت تونيب تقع في منطقة تنافست عليها قوى عديدة ومع صعود الحثيين، أصبح شمال سورية ساحة صراع مفتوحة.

فالمدينة التي تعلن ولاءها لمصر قد تصبح هدفًا لقوة موالية للحثيين وهنا تظهر أهمية تونيب لم يكن الصراع عليها نابعًا من رغبة في امتلاك مدينة واحدة، بل من رغبة القوى الكبرى في التحكم بشبكة المدن والمراكز التي تربط شمال سورية بالداخل.

تونيب والميتانيون

قبل أن يفرض الحثيون نفوذهم على المنطقة، كانت ميتاني قوة أساسية في شمال سورية وكانت مدن كثيرة تدور في فلكها، بينما كانت مصر تحاول الحفاظ على نفوذها جنوبًا وتأثرت تونيب بهذه المنافسة لكن المعلومات المتوفرة لا تسمح لنا برسم تسلسل كامل ودقيق لتحالفات المدينة في كل مرحلة، ولذلك لا ينبغي أن ننسب إليها ولاءً ثابتًا لمملكة واحدة طوال تاريخها فالواقع السياسي كان أكثر تعقيدًا.

شوبيلوليوما الأول

مع صعود الملك الحثي شوبيلوليوما الأول، بدأت مرحلة جديدة شن الحثيون حملات واسعة في سورية، وتمكنوا من إسقاط نفوذ ميتاني في مناطق عديدة، وفرضوا نظامًا جديدًا من التحالفات والتبعية.

وكانت المدن أمام خيارين مقاومة التوسع الحثي، أو قبول النفوذ الجديد.

وفي هذه المرحلة أصبحت تونيب جزءًا من العالم السياسي الذي أعاد الحثيون تشكيله.

لم تتحول تونيب إلى عاصمة لإمبراطورية، لكنها بقيت مدينة ذات قيمة سياسية وكان الحاكم المحلي يتعامل مع السلطة الكبرى، بينما تستمر الحياة داخل المدينة وهذا النوع من المدن كان مهمًا للإمبراطوريات القديمة؛ فالحفاظ على ولاء الحكام المحليين كان أحيانًا أكثر فاعلية من إرسال جيش دائم إلى كل مدينة وكانت المعاهدات والرهائن والجزية والولاء الشخصي للملك وسائل تستخدم لتثبيت هذا النظام.

تونيب وقادش

ارتبط تاريخ تونيب بالعالم السياسي نفسه الذي ظهرت فيه قادش وأمورو.

لكن لا ينبغي دمج تاريخ المدن الثلاث وكأنها مملكة واحدة فلكل منها حاكمها ومصالحها ووضعها السياسي وكانت الأحداث الكبرى في سورية تجعل قرارات إحدى المدن تؤثر في الأخرى، خصوصًا عندما تتحول المنطقة إلى ساحة صراع بين مصر والحثيين وهذا هو السبب في ظهور أسماء هذه المدن معًا في المصادر التي تتحدث عن الصراع على سورية.

بعد استقرار النفوذ الحثي

بعد أن أصبح الحثيون القوة المسيطرة على شمال سورية، دخلت تونيب في النظام السياسي الحثي لكن الأدلة المتوفرة عن تاريخها الداخلي تصبح أقل وضوحًا ولا نملك سلسلة متصلة من أسماء حكام تونيب، ولا أرشيفًا محليًا ضخمًا يسمح بإعادة بناء تاريخ المدينة سنة بعد سنة وهنا يجب أن نكون حذرين فغياب الوثائق لا يعني أن المدينة لم تكن مهمة، وإنما يعني أن قدرتنا على معرفة تفاصيل حياتها السياسية أقل من قدرتنا على دراسة مدن مثل ألالاخ أو ماري.

المدينة التي بقيت في الرسائل

ربما يكون هذا أكثر ما يميز تونيب فنحن لا نعرفها أساسًا من قصر ملكي ضخم أو من مقبرة ملكية مليئة بالكنوز، وإنما نعرفها من صوت حاكمها في الوثائق حاكم يكتب إلى الفرعون ويطلب منه المساعدة وهذه الرسالة البسيطة تكشف عالمًا كاملًا.

تكشف أن هناك مدينة تخشى فقدان استقلالها، وحاكمًا يعرف أنه يحتاج إلى قوة أكبر، وفرعونًا بعيدًا لا يستجيب بالسرعة التي يريدها، وقوى أخرى تتحرك حول المدينة وتنتظر فرصة للسيطرة عليها إنها صورة صغيرة، لكنها حقيقية، للسياسة في بلاد الشام القديمة.

نهاية تونيب

لا يمكن تحديد لحظة واحدة مؤكدة يمكن القول إنها كانت سقوط تونيب بالمعنى نفسه الذي نستطيع به الحديث عن سقوط مدينة دُمّرت في طبقة أثرية واضحة ومع انهيار النظام السياسي في نهاية العصر البرونزي

المتأخر، تغيرت طبيعة المنطقة كلها انهارت ممالك، واختفت سلالات، وتغيرت طرق التجارة، وظهرت جماعات ومراكز سياسية جديدة وفي خضم هذه التحولات فقدت تونيب مكانتها التي عرفتها خلال العصر البرونزي المتأخر، واختفى اسمها تدريجيًا من السجلات.

أهمية تونيب

قد لا تكون تونيب من أشهر مدن العالم القديم، لكنها مهمة لأنها تعطينا صورة عن المدن التي كانت تقف في المنتصف بين القوى الكبرى.

لم تكن إمبراطورية تستطيع فرض إرادتها على الآخرين، ولم تكن قرية مجهولة بلا وزن كانت مدينة لها حاكم، ولها مصالح، ولها خوف من القوى المحيطة بها، وكانت تعرف أن بقاءها مرتبط بقدرتها على الحصول على دعم قوة أكبر وعندما عجزت القوى المحلية عن حماية مصالحها بنفسها، أصبحت الرسائل الدبلوماسية وسيلة من وسائل البقاء ولهذا فإن قصة تونيب لا تُقرأ فقط بوصفها قصة مدينة قديمة، بل بوصفها قصة حاكم يحاول إنقاذ مدينته وسط عالم تتغير فيه القوى من حوله وهذا هو السبب الذي جعل اسم تونيب يصل إلينا حتى اليوم، رغم أن المدينة نفسها لم تترك لنا أرشيفًا يوازي أرشيف ألالاخ أو ماري.

لقد بقيت تونيب في التاريخ لأن أحد حكامها كتب إلى أقوى ملك في عصره وقال، بصورة واضحة، إن مدينته تحتاج إلى المساعدة.

نيا مملكة غامضة على طرق الشمال

من بين المراكز السياسية التي ظهرت في تاريخ بلاد الشام خلال العصر البرونزي المتأخر تبرز نيا، وهي من أكثر الكيانات التي تثير أسئلة الباحثين.

فالاسم يظهر في عدد من المصادر القديمة، وخاصة في النصوص المصرية، لكن المعلومات المتوفرة لا تسمح بإعادة بناء تاريخ متصل للمملكة كما نستطيع أن نفعل مع يمحاض أو ماري أو ألالاخ.

ولهذا فإن قصة نيا يجب أن تُروى بحذر؛ فما نعرفه عنها يأتي من إشارات متفرقة تركتها القوى الكبرى التي تعاملت معها، وليس من أرشيف ملكي محلي وصل إلينا.

اسم نيا في المصادر المصرية

ظهر اسم نيا في السجلات المصرية ضمن أسماء المدن والمناطق التي وصل إليها المصريون في حملاتهم في بلاد الشام.

وكانت المنطقة التي ارتبطت بها نيا جزءًا من المجال السياسي المتشابك في شمال سورية.

وتظهر أهمية الاسم في أن المصريين لم يكونوا يسجلون المدن اعتباطًا؛ فظهور مدينة أو مملكة في السجلات كان غالبًا مرتبطًا بحملة عسكرية، أو بإرسال الجزية، أو بعلاقة سياسية، أو بموقعها ضمن شبكة المناطق التي كانت مصر تهتم بها.

وهكذا وصل اسم نيا إلى التاريخ من خلال علاقتها بالقوى الأكبر منها.

نيا في عالم الممالك السورية

كانت نيا جزءًا من عالم سياسي يضم ممالك ومدنًا عديدة، ولم تكن تعيش منعزلة عن محيطها كانت القوى الكبرى تتنافس على شمال سورية، وكانت الممالك المحلية تحاول الحفاظ على استقلالها أو تحقيق أكبر قدر ممكن من النفوذ ولهذا يمكن فهم نيا ضمن شبكة سياسية تضم مراكز مثل تونيب وقادش وأمورو وغيرها، لكن ذلك لا يعني أنها كانت تابعة لها أو أنها شكلت معها دولة واحدة لكل مركز وضعه السياسي الخاص، وكانت العلاقات بينها تتغير بحسب الظروف.

موقع نيا

يربط الباحثون نيا بمنطقة شمال سورية، وغالبًا ما تُوضع في نطاق وادي العاصي أو المناطق القريبة منه، لكن الموقع الدقيق لمدينة نيا لم يُحسم بصورة نهائية وهذه نقطة لا ينبغي تجاوزها.

ففي التاريخ القديم توجد أسماء مدن نعرفها من النصوص، لكننا لا نستطيع دائمًا تحديد موقعها على الخريطة الحديثة بثقة كاملة وفي حالة نيا، ما زال تحديد الموقع موضوعًا للبحث والنقاش.

نيا في زمن تحتمس الثالث

تظهر نيا ضمن عالم الحملات المصرية في سورية خلال عهد تحتمس الثالث كان تحتمس الثالث قد شن حملات متكررة لتثبيت النفوذ المصري في بلاد الشام، وكانت المدن والممالك السورية تتعامل مع الجيش المصري بدرجات مختلفة من المقاومة أو الخضوع وتظهر نيا في هذا السياق بوصفها واحدة من المراكز التي عرفها المصريون في المنطقة.

لكن لا توجد لدينا قصة مفصلة عن معركة كبرى خاضتها نيا في مواجهة الجيش المصري، ولذلك لا يصح أن ننسب إليها أحداثًا عسكرية محددة لا تثبتها المصادر.

نيا والخيول

من الأمور اللافتة المرتبطة بنيا في المصادر المصرية أن المنطقة اشتهرت بالخيول وكان الحصان في العصر البرونزي المتأخر عنصرًا عسكريًا مهمًا، لأن العربات الحربية التي تجرها الخيول كانت من أهم أدوات الجيوش الملكية ولهذا أصبحت المناطق التي تنتج الخيول أو تربيها ذات قيمة استراتيجية.

وتشير المصادر إلى وجود صلة بين نيا والخيول، ما يساعد على فهم جانب من أهميتها في نظر القوى الكبرى فالمملكة لم تكن مهمة فقط بسبب الأرض التي تسيطر عليها، وإنما أيضًا بسبب الموارد التي يمكن أن تقدمها للجيوش والبلاطات الملكية.

نيا والميتانيون

كانت نيا تقع في عالم سياسي تأثر بقوة مملكة ميتاني وفي القرن الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد كانت ميتاني إحدى أهم القوى في شمال بلاد الرافدين وشمال سورية وكان نفوذها يصل إلى عدد من الممالك والمدن السورية، سواء من خلال التحالف أو التبعية أو العلاقات السياسية.

لكن لا توجد أدلة كافية تسمح لنا بوصف نيا بأنها كانت طوال تاريخها مملكة ميتانية تابعة بصورة ثابتة الأدق هو القول إن نيا كانت ضمن منطقة تأثرت بالنفوذ الميتاني، وإن علاقاتها السياسية تغيرت مع تغير ميزان القوى.

التحول الحثي

عندما بدأ الحثيون بقيادة شوبيلوليوما الأول توسيع نفوذهم في سورية، دخلت المنطقة مرحلة جديدة انهارت قوة ميتاني تدريجيًا، وانتقلت مدن وممالك كثيرة إلى المجال الحثي وكانت نيا جزءًا من هذه التحولات.

لكن المصادر لا تسمح لنا بكتابة قصة تفصيلية عن لحظة انتقال نيا من نفوذ إلى آخر، كما نستطيع في بعض الممالك التي تركت معاهدات أو أرشيفات واضحة وهنا يجب أن يبقى الحد الفاصل واضحًا بين ما نعرفه وما نستنتجه.

نيا في زمن الإمبراطوريات

تكشف قصة نيا عن طبيعة الحياة السياسية في بلاد الشام القديمة.

فالمملكة أو المدينة المحلية كانت تقع وسط شبكة من القوى المتنافسة، وقد تتغير تبعيتها السياسية من جيل إلى آخر لم يكن هذا التغيير يعني بالضرورة أن سكان المدينة تغيروا أو أن حياتهم اليومية اختفت ففي كثير من الأحيان كان الحاكم المحلي يبقى في منصبه، بينما يتغير اسم الملك الأعلى الذي يعترف بسلطته وهكذا يمكن لمدينة واحدة أن تظهر في السجلات المصرية ثم تدخل لاحقًا ضمن المجال الميتاني أو الحثي، بينما تستمر الحياة فيها بصورة متواصلة.

قد يطرح القارئ سؤالًا طبيعيًا إذا كانت نيا مهمة إلى هذه الدرجة، فلماذا لا نعرف سلسلة ملوكها؟ السبب أن المصادر التي وصلت إلينا ليست أرشيف نيا

فنحن نعرف المدينة أساسًا من خلال نصوص قوى أخرى، وخاصة النصوص المصرية، وهذه النصوص لم تكن تهدف إلى تسجيل تاريخ نيا الداخلي كان

الهدف الأساسي منها تسجيل الحملات والجزية والبلدان التي تعاملت معها مصر ولهذا بقيت أسماء كثيرة من حكام نيا وتفاصيل حياتهم خارج السجل التاريخي الذي وصل إلينا.

نهاية نيا

لا نملك لحظة مؤكدة يمكن أن نقول إنها كانت سقوط نيا كما نقول عن مدن دمرها جيش معروف في سنة محددة.

لكن نيا، مثل غيرها من المراكز السورية، تأثرت بالتحولات الكبرى التي أنهت نظام العصر البرونزي المتأخر ومع نهاية هذا النظام اختفت أسماء ممالك كثيرة من السجلات، وتغيرت الخريطة السياسية لبلاد الشام.

وفي ظل هذه التحولات تراجعت نيا واختفى حضورها الواضح من المصادر.

نيا التي بقي منها الاسم

ربما تكون قيمة نيا التاريخية في أنها تذكرنا بحدود معرفتنا بالماضي فليس كل ما كان مهمًا في العالم القديم ترك لنا قصرًا أو أرشيفًا أو قائمة ملوك.

هناك مدن وممالك نعرف أنها كانت موجودة، ونعرف أنها دخلت في العلاقات السياسية والاقتصادية والعسكرية لعصرها، لكننا لا نملك إلا شذرات من قصتها ونيا واحدة من هذه المراكز إنها تظهر في السجلات، وترتبط بالخيول وبالحملات المصرية وبالعالم السياسي لشمال سورية، ثم تصبح أكثر غموضًا كلما حاولنا الاقتراب من تفاصيل حياتها الداخلية لكن هذا الغموض لا يقلل من قيمتها بل يجعلها شاهدًا على أن التاريخ الذي وصل إلينا ليس التاريخ الكامل، وإنما الجزء الذي استطاعت الحروب والكتابات والآثار أن تحفظه.

نوخاشّي ممالك في قلب الصراع

كانت نوخاشّي من المناطق السياسية المهمة في شمال بلاد الشام خلال العصر البرونزي المتأخر، وتقع في الداخل السوري، في المنطقة الممتدة تقريبًا بين حوض العاصي والفرات، إلى الجنوب والجنوب الشرقي من حلب، مع امتداد نفوذها نحو مناطق أخرى من وسط سورية. ولا يمكن رسم حدود ثابتة لها كما نرسم حدود الدول الحديثة؛ فالمصادر القديمة تتحدث أحيانًا عن ملوك نوخاشّي بصيغة الجمع، مما يشير إلى وجود مجموعة من الممالك أو الإمارات المحلية المرتبطة بهذا الاسم، بدل قيام دولة مركزية واحدة طوال تاريخها. كما أن موقع مركزها الرئيسي لم يُحسم بصورة نهائية، وإن ربط بعض الباحثين به موقع أوغولزات بمدينة خان شيخون الحالية في جنوب إدلب وإن كان هذا التحديد لا يزال في إطار الترجيح.

دخلت نوخاشّي مبكرًا في شبكة العلاقات الدولية التي ربطت ممالك سورية بمصر وميتاني والحيثيين. وتكشف رسائل تل العمارنة جانبًا مهمًا من تاريخها، ومن أبرز شخصياتها الملك أدد-نيراري، الذي كتب إلى الفرعون المصري طالبًا المساعدة والجنود في مواجهة الأخطار التي كانت تهدد مملكته. وفي رسالته يشير إلى أن جده تاغو كان قد مُنح مُلك نوخاشّي في عهد الفرعون تحتمس الثالث، وهو ما يكشف عن علاقة سياسية قديمة بين الأسرة الحاكمة في نوخاشّي والعرش المصري.

كان أدد-نيراري يحكم في وقت أصبحت فيه موازين القوى في سورية تتغير بسرعة. فقد كانت نوخاشّي مرتبطة بميتاني، بينما أخذ الحيثيون، بقيادة شوبيلوليوما الأول، يتقدمون نحو شمال سورية. وعندما عرض شوبيلوليوما على أدد-نيراري التحالف معه، رفض الملك العرض، واتجه بدلًا من ذلك إلى

مصر طالبًا دعم الفرعون. غير أن المساعدة المصرية لم تصل إليه، وأصبح موقف نوخاشّي أكثر صعوبة مع استمرار التوسع الحثي.

ولم تكن نوخاشّي بعيدة عن الصراعات التي شهدتها الممالك المجاورة. فقد ارتبطت علاقاتها في هذه المرحلة بممالك نيا وموكيش، كما دخلت في صراع مع القوى التي أخذت تميل إلى الجانب الحثي. وتكشف هذه العلاقات أن الممالك السورية لم تكن تتحرك منفردة؛ فالحكام كانوا يعقدون التحالفات ويغيرون مواقفهم بحسب الخطر الذي يواجهونه، في وقت كانت فيه مصر وميتاني والحيثيون تتنافس على السيطرة على المنطقة. وتظهر نوخاشّي في هذا المشهد بوصفها إحدى القوى المحلية التي حاولت الحفاظ على استقلالها وسط هذا الصراع.

ثم ظهر ملك آخر من ملوك نوخاشّي هو تِتّه، الذي دخل في علاقة مباشرة مع شوبيلوليوما الأول، وتوجد معاهدة حثية معروفة بينهما. وتكشف هذه المعاهدة انتقال العلاقة من المواجهة إلى الخضوع للنفوذ الحثي، وهو تحول شهدته ممالك عديدة في شمال سورية خلال تلك المرحلة.

أما آخر مراحل استقلال نوخاشّي فتظهر في عهد الملك شارّوبشي. فقد شن شوبيلوليوما حملة عسكرية على نوخاشّي، وفرّ شارّوبشي أمام القوات الحثية، بينما وقع أفراد من أسرته في الأسر. وبعد انتصار الحيثيين، فُرض نفوذهم على المنطقة، وأصبح أوغولزات مركزًا لحكم تابع لهم بحسب الرواية الحثية. وهكذا انتهت المرحلة التي كانت فيها نوخاشّي قادرة على اتخاذ موقف مستقل بين القوى الكبرى.

وتكشف قصة نوخاشّي عن طبيعة بلاد الشام في العصر البرونزي المتأخر لم تكن المنطقة مجموعة ممالك معزولة، بل شبكة من القوى الصغيرة

والمتوسطة التي ارتبطت ببعضها بالتحالفات والحروب والمراسلات الدبلوماسية. ولهذا ظهرت نوخاشّي في المصادر المصرية والحثية إلى جانب نيا وموكيش وتونيب، وأصبحت جزءًا من الصراع الذي انتهى بتوسع الحيثيين في شمال سورية. ومن خلال ملوكها، من تاغو وأدد-نيراري إلى تِتّه وشارّوبشي، يمكن تتبع انتقال نوخاشّي من منطقة ذات نفوذ محلي إلى منطقة خاضعة للقوة الحثية الصاعدة.

مملكة سمأل / بيت جَبّاري

ظهرت مملكة سمأل، التي عُرفت في بعض المصادر باسم بيت جَبّاري، في شمال بلاد الشام خلال العصر الحديدي، وكانت من أبرز الممالك السورية التي نشأت بعد انهيار الإمبراطورية الحثيّة. وتمركزت في المنطقة الشمالية من سورية، قرب الممرات التي تصل الداخل السوري بالأناضول، وأصبحت مع مرور الوقت واحدة من أهم المراكز السياسية التي جمعت بين التقاليد اللووية والآرامية.

كانت عاصمة المملكة يَديّا، المعروفة اليوم باسم زينجيرلي في جنوب تركيا، بالقرب من الحدود السورية. وقد منحها هذا الموقع أهمية استراتيجية؛ فهي تقع عند ممرات طبيعية بين سهل قيليقيا وشمال سورية، وعلى طرق تصل منطقة الفرات الأعلى بالمناطق الداخلية والساحل. ولذلك لم تكن سمأل مملكة بعيدة عن عالم حلب، بل كانت جزءًا من الحزام السياسي الشمالي الذي تحركت فيه الجيوش والقوافل بين سورية والأناضول.

ارتبط تاريخ سمأل بسلالة محلية عُرفت باسم بيت جَبّاري، وقد استخدمت المملكة في بداياتها تقاليد كتابية وثقافية ذات صلة بالعالم اللووي-الحثي الجديد. ومع مرور الزمن ازداد الحضور الآرامي فيها، وأصبحت الآرامية لغة بارزة في النقوش الملكية، وهو ما يعكس التحول الثقافي والسياسي الذي شهدته الممالك السورية في العصر الحديدي.

ومن أهم ما يميز سمأل أن لدينا عنها مادة محلية أفضل من كثير من الممالك الشمالية الأخرى، بفضل النقوش التي عُثر عليها في موقع زينجيرلي.

وتسمح هذه النقوش بالتعرف إلى عدد من ملوكها، وإلى جوانب من نظام الحكم والمجتمع والدين والعلاقات السياسية.

من أبرز حكام المملكة جَبّاري، الذي ارتبط اسمه بتأسيس السلالة الحاكمة، ثم جاء بعده عدد من الملوك الذين ظهروا في النقوش، ومن أشهرهم كِليمُو، الذي ترك نصبًا مهمًا يروي جانبًا من تاريخه ويكشف عن طبيعة الحكم في المملكة.

ويظهر من نقش كِليمو أن سمأل لم تكن مجرد مدينة محصنة، بل كانت دولة لها جهاز حكم وسلالة ملكية وعلاقات مع القوى المحيطة. كما تكشف النقوش عن اهتمام الملوك بتثبيت سلطتهم وتخليد أعمالهم، وهو ما يجعل سمأل واحدة من أهم المواقع التي تساعد على دراسة تطور الممالك الآرامية في شمال بلاد الشام.

دخلت سمأل في علاقات متشابكة مع القوى الكبرى في المنطقة. فموقعها جعلها على تماس مع الممالك السورية الشمالية، وفي الوقت نفسه قريبة من طرق الأناضول، بينما كانت الإمبراطورية الآشورية تتقدم تدريجيًا نحو الغرب. ولذلك كان على ملوك سمأل أن يتعاملوا مع آشور بحذر، فتارة يخضعون لها ويدفعون الجزية، وتارة يحاولون الحفاظ على مساحة من الاستقلال.

في القرن التاسع قبل الميلاد أصبحت سمأل جزءًا من العالم السياسي الذي بدأت آشور تتعامل معه بصورة مباشرة. ومع حملات شلمنصر الثالث اتسع الضغط الآشوري على شمال سورية، واضطرت الممالك الصغيرة إلى الاعتراف بالقوة الآشورية. ولم تكن سمأل استثناءً من ذلك، لكنها استطاعت الحفاظ على وجودها المحلي فترة طويلة مقارنة بكيانات أخرى.

ومن أهم المراحل في تاريخها مرحلة الملك كِليمُو، الذي يظهر في المصادر والنقوش بوصفه حاكمًا نشطًا استطاع إعادة تنظيم المملكة وتثبيت مكانتها. ويرتبط عهده بعلاقات مع آشور ومع القوى السورية المجاورة، كما يعكس النقش المنسوب إليه التداخل بين العناصر الآرامية واللووية داخل المملكة.

وتكشف النقوش عن مجتمع متنوع؛ فاللغة الآرامية كانت حاضرة إلى جانب تقاليد أقدم، كما أن الأسماء والعبادات تعكس تداخلًا بين الموروثات المحلية والعناصر القادمة من المناطق المجاورة. وهذا التنوع لم يكن استثنائيًا في شمال سورية، بل كان سمة أساسية للممالك التي نشأت بعد انهيار النظام الحثي.

وكانت سمأل تملك موقعًا اقتصاديًا مهمًا أيضًا. فقد استفادت من قربها من طرق التجارة التي تمر بين الأناضول وشمال سورية، ومن الأراضي الزراعية المحيطة بها. وكانت السيطرة على هذه الطرق تمنح المملكة موارد مهمة، كما جعلتها طرفًا مطلوبًا في التحالفات الإقليمية.

لم يكن الصراع بين سمأل وآشور صراعًا عسكريًا دائمًا، بل كان في كثير من الأحيان صراعًا على مقدار الاستقلال الذي يستطيع الملك المحلي الاحتفاظ به. وكانت آشور تفضل في البداية الحصول على الجزية والولاء من الملوك المحليين بدلًا من ضم كل منطقة مباشرة. لكن هذه السياسة تغيرت في القرن الثامن قبل الميلاد مع تحول آشور إلى سياسة الضم الإداري المباشر.

ومع توسع آشور في عهد تغلاث فلاسر الثالث أصبحت سمأل تحت ضغط أكبر. واضطر ملوكها إلى التعامل مع النظام الآشوري الجديد، الذي لم يعد يكتفي بالاعتراف الاسمي بالملوك المحليين، بل كان يسعى إلى تحويل الممالك إلى أقاليم أو دويلات تابعة بشكل مباشر.

وفي أواخر تاريخ المملكة ظهرت شخصية الملك برراكب، أحد أشهر ملوك سمأل، الذي حكم في القرن الثامن قبل الميلاد. وتكشف نقوشه عن علاقة وثيقة مع آشور، كما تظهر فيها صورة الملك المحلي الذي يحاول الحفاظ على مكانته داخل النظام الإمبراطوري الآشوري. ويُعد نص برراكب من المصادر المهمة لفهم كيفية استمرار النخب المحلية بعد توسع آشور.

ومع مرور الوقت فقدت سمأل استقلالها السياسي، وأصبحت جزءًا من النظام الآشوري. ولم يكن ذلك مجرد سقوط عسكري لمدينة، بل نهاية لنظام ملكي محلي كان قد استمر لعدة أجيال. ومع ذلك بقيت زينجيرلي مركزًا مهمًا، واستمرت المنطقة في أداء دورها ضمن طرق المواصلات بين سورية والأناضول كما تكشف سمأل عن حقيقة مهمة في تاريخ بلاد الشام أن الحدود الثقافية والسياسية لم تكن ثابتة. فقد اجتمعت في المملكة تقاليد لووية وحثية وآرامية، وتبدلت لغة النقوش والهوية السياسية للسلالة مع مرور الزمن. ولذلك تمثل سمأل مثالًا واضحًا على عملية التحول التي شهدتها شمال بلاد الشام بعد نهاية العصر البرونزي وبهذا أصبحت سمأل حلقة مهمة بين الممالك الشمالية مثل بالستين وباتين، والمجال الحلبي، وطرق الأناضول. ومن خلال تاريخها نستطيع أن نرى كيف نشأت ممالك محلية بعد سقوط القوى الكبرى، وكيف استطاعت أن تعيش عدة قرون وسط منافسة الممالك المجاورة، قبل أن تفرض آشور نظامها الإمبراطوري على المنطقة.

لم تختفِ سمأل من التاريخ بمجرد فقدان استقلالها؛ فالنقوش التي تركها ملوكها حفظت جانبًا من تاريخ المجتمع والسياسة واللغة في شمال سورية القديمة. ولهذا تُعد المملكة من أهم الشواهد على العالم السياسي المتنوع الذي نشأ في بلاد الشام خلال العصر الحديدي، وعلى المرحلة التي سبقت اكتمال السيطرة الآشورية على المنطقة.

مملكة غرغوم

كانت مملكة غرغوم إحدى الممالك الإقليمية التي ظهرت في شمال بلاد الشام خلال العصر الحديدي، وتمركزت في المنطقة الواقعة حول مرعش القديمة، في جنوب شرقي الأناضول الحالية. وقد جعلها موقعها على الممرات الشمالية لبلاد الشام قوة مهمة في شبكة الممالك التي ربطت سورية بالأناضول والفرات الأعلى، كما وضعها في منطقة تماس بين الممالك الآرامية والممالك ذات التقاليد اللووية والحثية الجديدة.

ارتبط مركز المملكة بمدينة مرعش، التي تعرف في المصادر الحديثة باسم كهرمان مرعش، بينما كان موقعها القديم يعرف باسم غورغوم. وكانت الأراضي المحيطة بالمدينة تضم سهولًا خصبة وممرات جبلية تصل شمال سورية بجبال طوروس. ومن هنا اكتسبت غرغوم قيمة اقتصادية وعسكرية؛ فالسيطرة عليها كانت تعني السيطرة على أحد الطرق التي تعبر من شمال سورية إلى الأناضول.

نشأت غرغوم في البيئة السياسية التي أعقبت انهيار الإمبراطورية الحثية في نهاية العصر البرونزي. وكغيرها من الممالك السورية-الحثية، حافظت في مراحلها المبكرة على عناصر من التراث الحثي واللووي، ثم ازداد الحضور الآرامي في المنطقة تدريجيًا. ولذلك ظهرت المملكة ضمن عالم ثقافي وسياسي متداخل لم تكن حدوده مطابقة للحدود الحديثة بين سورية وتركيا.

وتشير النقوش الأثرية إلى أن ملوك غرغوم استخدموا اللغة اللووية في مراحل مبكرة، كما ظهرت أسماء آرامية في المراحل اللاحقة. وتكشف هذه الظاهرة عن التحول الذي شهدته المنطقة، حيث لم تختفِ التقاليد القديمة بعد

سقوط الدولة الحثية، بل استمرت داخل ممالك محلية ثم تداخلت مع الثقافة الآرامية التي انتشرت في شمال سورية.

من أبرز ملوك غرغوم لاراما، ثم مانا، وظهر بعدهما ملوك آخرون عرفوا من النقوش والسجلات الآشورية. ومن أهم حكامها في القرن الثامن قبل الميلاد تارحولارا، الذي أصبح معروفًا بصورة خاصة من خلال السجلات الآشورية. وتساعد أسماء هؤلاء الملوك على تتبع استمرار المملكة وتطورها السياسي قبل سقوطها كانت غرغوم تتعامل مع عدد من القوى المحيطة بها. فمن جهة كانت قريبة من سمأل والممالك الشمالية الأخرى، ومن جهة أخرى كانت مرتبطة بالمجال السياسي الممتد نحو كركميش والفرات. كما أن موقعها جعلها على مقربة من طرق تصل إلى الممالك السورية الداخلية، ولذلك لم يكن تاريخها منفصلًا عن الصراعات التي شهدتها شمال بلاد الشام.

ومع توسع الإمبراطورية الآشورية الحديثة أصبحت غرغوم هدفًا للسياسة الآشورية. فقد كانت آشور تسعى إلى إخضاع الممالك الواقعة على طرق التجارة والاتصال بين بلاد الرافدين والأناضول وسورية. وكان إخضاع غرغوم مهمًا لأنه يسمح لآشور بتثبيت سيطرتها على الممرات الشمالية وتأمين طرق الحملات العسكرية والتجارة خضعت غرغوم للنفوذ الآشوري في القرن الثامن قبل الميلاد، ودفعت الجزية لآشور، لكنها احتفظت لفترة بحكمها المحلي. وفي عهد الملك تارحولارا اشتدت علاقة المملكة بالإمبراطورية الآشورية، إذ أصبح على الملك المحلي أن يحافظ على ولائه لآشور مقابل استمرار حكمه لكن التوسع الآشوري لم يكن يقبل ببقاء هذه الممالك مستقلة إلى الأبد. ففي عهد تغلاث فلاسر الثالث أصبحت غرغوم جزءًا من المشروع الآشوري للسيطرة المباشرة على شمال بلاد الشام. وفي سنة ٧١١ ق.م. تقريبًا ضمت آشور المملكة بعد تدخلها العسكري، وانتهى

وجود غرغوم كدولة مستقلة وبعد ضمها أعادت آشور تنظيم أراضي غرغوم إداريًا، وأصبحت المنطقة جزءًا من النظام الإمبراطوري. وهكذا انتهى عصر الملوك المحليين، لكن أهمية الموقع لم تنتهِ؛ فقد ظل مركز مرعش والمنطقة المحيطة به مهمين بسبب موقعهما على طرق العبور بين سورية والأناضول وكان اقتصاد غرغوم يعتمد على الزراعة في السهول المحيطة بمرعش، إلى جانب الاستفادة من موقعها على الطرق التجارية. وكانت الجبال القريبة توفر موارد طبيعية، بينما أتاحت الممرات الجبلية الاتصال بالمناطق الواقعة شمالًا. لذلك جمعت المملكة بين الموارد الزراعية والموقع الاستراتيجي.

وتكشف غرغوم كذلك عن التداخل بين العالمين السوري والأناضولي. فالمدينة تقع اليوم داخل تركيا، لكن المملكة كانت جزءًا من العالم السياسي لبلاد الشام القديمة، وكانت علاقاتها تمتد جنوبًا إلى الممالك السورية وشرقًا نحو الفرات. وهذا يوضح أن الحدود الحديثة لا يمكن إسقاطها بصورة مباشرة على الخريطة السياسية القديمة ومع سقوط غرغوم أمام آشور انتقلت المنطقة إلى مرحلة جديدة، لكنها بقيت جزءًا من شبكة الطرق التي تربط شمال سورية بالأناضول. ولذلك فإن تاريخها لا يمثل قصة مملكة صغيرة معزولة، بل يوضح كيف كانت السيطرة على الممرات الشمالية جزءًا من الصراع الكبير بين الممالك السورية والإمبراطورية الآشورية.

وتكشف مملكة غرغوم في النهاية عن عالم سياسي متعدد الثقافات؛ عالم احتفظ بتراث الحيثيين واللوويين، واستقبل التأثيرات الآرامية، ثم دخل في النظام الإمبراطوري الآشوري. ولهذا فإنها تمثل إحدى الحلقات المهمة في تاريخ التحولات التي شهدها شمال بلاد الشام خلال العصر الحديدي.

مملكة كموخ / كومّوخ

كانت مملكة كموخ، أو كومّوخ (Kummuh)، إحدى الممالك المهمة التي قامت في أعالي الفرات خلال العصر الحديدي، وتمركزت أراضيها حول المنطقة الواقعة في جنوب شرقي الأناضول الحالية، بالقرب من مجرى الفرات الأعلى. وقد جعلها موقعها واحدة من أهم القوى التي تحكمت في طرق العبور بين شمال بلاد الشام وبلاد الرافدين والأناضول، ولذلك ارتبط تاريخها بصورة وثيقة بالمنافسة بين الممالك السورية والإمبراطوريات الكبرى.

كان مركز المملكة في منطقة ملطية وأديامان وما حولها، ويُربط قلبها السياسي بمدينة كومّاخا القديمة، التي يختلف تحديد مركزها الإداري الدقيق بحسب الفترات التاريخية. ومع ذلك فإن موقع المملكة على الفرات واضح في المصادر، وهو الذي منحها قيمتها الاستراتيجية؛ فالفرات لم يكن مجرد نهر، بل كان طريقًا طبيعيًا للاتصال بين المشرق والأناضول، وكانت المعابر عليه ذات أهمية عسكرية وتجارية كبيرة.

ظهرت كموخ ضمن البيئة السياسية التي تشكلت بعد انهيار الإمبراطورية الحثية في نهاية العصر البرونزي. وكغيرها من ممالك شمال بلاد الشام، ورثت عناصر من التقاليد الحثية واللووية القديمة، ثم دخلت في علاقات متزايدة مع القوى الآرامية والرافدية. ولذلك تمثل المملكة مرحلة من المراحل التي امتزجت فيها التقاليد المحلية مع التحولات السياسية والثقافية التي شهدتها المنطقة.

كان موقع كموخ يجعلها قريبة من عدد من القوى المهمة. فقد كانت إلى الغرب والجنوب الغربي من مناطق كركميش، وإلى الشمال من الممالك السورية الداخلية، بينما امتدت طرقها نحو الفرات الأعلى وبلاد الرافدين. وبذلك أصبحت طرفًا في شبكة سياسية واسعة تصل بين العالم السوري والعالم الأناضولي والعالم الرافدي.

وتظهر كموخ في المصادر الآشورية منذ وقت مبكر، إذ كانت الإمبراطورية الآشورية تنظر إليها باعتبارها إحدى الممالك الواقعة على طرق التوسع غربًا. وكانت السيطرة على كموخ تمنح آشور موقعًا مهمًا على الفرات، وتسمح لها بمتابعة تحركات الممالك الواقعة إلى الغرب والجنوب.

في القرن التاسع قبل الميلاد بدأت العلاقات بين كموخ وآشور تتخذ طابعًا أكثر وضوحًا. ومع الحملات الآشورية المتكررة في سورية، اضطر ملوك كموخ إلى الاعتراف بالقوة الآشورية ودفع الجزية في بعض المراحل. إلا أن المملكة حافظت على استقلالها الداخلي لفترة طويلة، مستفيدة من موقعها الحدودي ومن قدرتها على التعامل مع القوى المتنافسة.

ومن أبرز الملوك الذين ارتبطوا بكموخ كوشاش، ثم أورامو، وظهر لاحقًا الملك كوتشاش في النقوش والسجلات المرتبطة بالمملكة. وتسمح المصادر الآشورية بتتبع عدد من حكامها، وإن كانت المعلومات المتوفرة عن تاريخها الداخلي أقل بكثير من المعلومات التي نملكها عن علاقتها بآشور.

وكانت المملكة تمتلك أهمية اقتصادية إلى جانب أهميتها العسكرية. فالفرات وفر المياه والأراضي الزراعية، كما أن الأراضي المحيطة بالمملكة كانت مناسبة للرعي والزراعة. والأهم أن الطرق التجارية التي تعبر المنطقة كانت

تمنح الحكام موارد إضافية من خلال السيطرة على المعابر والحركة بين الأناضول وبلاد الرافدين.

ومع توسع آشور في القرن الثامن قبل الميلاد أصبحت كموخ أكثر ارتباطًا بالنظام الآشوري. وكانت السياسة الآشورية تتجه تدريجيًا من الحصول على الجزية إلى فرض السيطرة المباشرة، خصوصًا في المناطق التي تتحكم في الطرق الرئيسية. وكان موقع كموخ على الفرات يجعلها من أهم المناطق التي لا تستطيع آشور تركها خارج نفوذها.

وفي عهد تغلاث فلاسر الثالث أصبحت المملكة تحت ضغط متزايد. فقد تحولت آشور إلى قوة إمبراطورية قادرة على إعادة تنظيم الممالك السورية والأناضولية، ولم يعد استقلال كموخ مضمونًا. وفي أواخر القرن الثامن قبل الميلاد أصبحت المملكة جزءًا من النظام الآشوري، وانتهى استقلالها السياسي.

ارتبط سقوط كموخ كذلك بالتغيرات التي أصابت القوى الأخرى في شمال سورية. فمع إخضاع كركميش وغرغوم وسمأل وأونقي وغيرها، أصبح المجال المحيط بالفرات الأعلى محاطًا بالمناطق الخاضعة لآشور. وبذلك فقدت كموخ قدرتها على المناورة بين الممالك المستقلة، وأصبحت جزءًا من شبكة إمبراطورية واحدة.

كما أن وجود كموخ على الفرات يوضح أهمية النهر في رسم الحدود السياسية القديمة. فالممالك لم تكن تتنافس على الأراضي الزراعية فقط، بل على المعابر والممرات التي تسمح للجيوش والتجار بالانتقال بين المناطق. ولذلك كان الفرات عنصرًا أساسيًا في الصراع بين آشور والممالك السورية.

وكانت كموخ أيضًا جزءًا من البيئة الثقافية المتنوعة في شمال بلاد الشام. فقد اجتمعت فيها تقاليد محلية متأثرة بالعالم الحثي واللووي، وتأثيرات آرامية ورافدية متزايدة. ومع انتقال المنطقة إلى السيطرة الآشورية أصبحت هذه العناصر جزءًا من مجتمع أكثر اتساعًا داخل الإمبراطورية.

وهكذا تمثل مملكة كموخ مرحلة مهمة في تاريخ أعالي الفرات؛ فقد نشأت كقوة محلية بعد انهيار النظام الحثي، وحافظت على استقلالها وسط تنافس الممالك المجاورة، ثم وجدت نفسها تدريجيًا أمام التوسع الآشوري الذي سيطر على طرق الفرات والمراكز المحيطة به.

مملكة ملِيد

كانت مملكة ملِيد من الممالك المهمة التي ظهرت في شمال بلاد الشام والأناضول الجنوبية خلال العصر الحديدي، وتمركزت حول مدينة ملِيدو القديمة، التي يُحدد موقعها في أراضي ملطية الحالية جنوب شرقي تركيا. وقد احتلت المملكة موقعًا استراتيجيًا بين أعالي الفرات والممرات المؤدية إلى شمال سورية والأناضول، ولذلك أصبحت إحدى القوى الإقليمية التي شاركت في تشكيل الخريطة السياسية لشمال بلاد الشام بعد انهيار الإمبراطورية الحيثية يعود تاريخ ملِيد إلى عصور أقدم من العصر الحديدي، إذ كانت المنطقة جزءًا من العالم الحثي في العصر البرونزي المتأخر. وبعد انهيار الإمبراطورية الحثية في نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد لم تختفِ المدينة، بل استمرت مركزًا سياسيًا محليًا، وظهرت حولها مملكة حافظت على كثير من التقاليد الحثية واللووية. ولهذا تُعد ملِيد من أبرز المراكز التي توضح استمرار الحضارة الحثية في مرحلة ما بعد سقوط الإمبراطورية.

كان موقع ملِيد قريبًا من الفرات الأعلى، وعلى طرق تصل شمال سورية بوسط الأناضول وشرقها. ومن هنا اكتسبت المملكة أهمية اقتصادية وعسكرية كبيرة؛ فالمنطقة كانت غنية بالزراعة، كما أن الممرات الجبلية القريبة سمحت بالاتصال بين السهول الداخلية والطرق المؤدية جنوبًا نحو سورية ظهرت ملِيد في المصادر الآشورية بوصفها إحدى القوى المهمة في المنطقة. وكانت آشور تنظر إلى الممالك الواقعة حول الفرات الأعلى باعتبارها جزءًا من المجال الذي يجب إخضاعه أو ضمان ولائه، خصوصًا أن طرقها كانت تسمح بالوصول إلى الممالك السورية من جهة، وإلى الأناضول من جهة أخرى.

ثم ظهر في مراحل لاحقة ملوك ارتبطوا بالتقاليد الآرامية. وتكشف النقوش التي عُثر عليها في المنطقة عن استمرار استخدام اللغة اللووية الهيروغليفية، كما تظهر تأثيرات آرامية متزايدة، وهو ما يعكس التحولات الثقافية التي شهدتها الممالك الشمالية.

ولم تكن ملِيد مملكة آرامية خالصة، كما لم تكن مملكة لووية خالصة؛ فقد كانت منطقة التقاء ثقافي وسياسي. وقد حافظ حكامها على تقاليد ورثوها من العالم الحثي، في الوقت الذي أصبحت فيه الآرامية والقوى الآرامية جزءًا من المشهد السياسي المحيط بها. وهذا التنوع يجعلها شبيهة بعدد من الممالك الشمالية الأخرى، حيث لم تكن الهوية السياسية القديمة مطابقة لمفهوم الدولة القومية الحديث.

ارتبطت ملِيد بعلاقات مع الممالك الواقعة إلى الجنوب والغرب، ومن أهمها كموخ وكركميش وغرغوم. وكانت هذه العلاقات تتغير بحسب قوة آشور وتوازن القوى في المنطقة. ففي بعض المراحل كانت الممالك الشمالية تتعاون لمواجهة التوسع الآشوري، وفي مراحل أخرى كانت تعترف بسلطة آشور وتدفع الجزية.

ومع توسع الإمبراطورية الآشورية في القرن الثامن قبل الميلاد أصبح موقع ملِيد أكثر حساسية. فقد كانت آشور تسعى إلى إحكام السيطرة على أعالي الفرات، لأن النهر كان أحد أهم طرق الحركة بين بلاد الرافدين وشمال سورية والأناضول. وكانت السيطرة على ملِيد تعني تأمين إحدى المناطق المهمة على هذا الطريق.

وفي عهد تغلاث فلاسر الثالث ازداد الضغط الآشوري على ممالك أعالي الفرات. وكانت ملِيد مضطرة إلى المحافظة على علاقات متوازنة مع آشور ومع القوى المجاورة، لكنها لم تستطع منع تمدد النفوذ الآشوري في المنطقة.

وفي أواخر القرن الثامن قبل الميلاد دخلت ملِيد في صراع مباشر مع آشور. وتشير السجلات إلى تدخل الملك الآشوري سرجون الثاني في شؤون المنطقة، ثم استمرت الحملات الآشورية خلال عهد خلفائه. ومع ازدياد التدخل الآشوري فقدت ملِيد جزءًا كبيرًا من استقلالها السياسي، وأصبحت ضمن المجال الخاضع للإمبراطورية.

لكن المملكة عادت إلى الواجهة في نهاية القرن السابع قبل الميلاد، عندما ضعفت آشور وبدأت الممالك المحلية تستعيد قدرًا من الاستقلال. وفي تلك المرحلة ظهرت ملِيد بوصفها قوة محلية مهمة، واستمرت تقاليدها السياسية والثقافية حتى دخول المنطقة في مرحلة الإمبراطوريات الجديدة.

وكان اقتصاد ملِيد يعتمد بصورة أساسية على الزراعة والرعي، مستفيدًا من السهول الخصبة حول ملطية ومن موارد المياه. كما استفادت المملكة من موقعها على طرق الحركة بين الفرات والأناضول وشمال سورية. ولم يكن النشاط التجاري منفصلًا عن السياسة؛ فالسيطرة على الطرق كانت تمنح المملكة موارد وتزيد من قدرتها على التفاوض مع القوى الكبرى.

وتظهر أهمية ملِيد كذلك في آثارها الفنية. فقد تركت المنطقة نقوشًا وتماثيل ومنشآت تحمل ملامح الفن الحثي الجديد، إلى جانب تأثيرات آرامية وأناضولية. وتوضح هذه الآثار أن الممالك الشمالية لم تكن مجرد كيانات سياسية متجاورة، بل كانت مجتمعات تتبادل الأساليب الفنية واللغات والرموز الدينية والسياسية.

أما علاقتها بحلب وحوض العاصي فتظهر بصورة غير مباشرة ولكن مهمة. فمليد تقع أبعد شمالًا وشرقًا من حلب، إلا أنها كانت جزءًا من شبكة الطرق التي تربط شمال سورية بالفرات الأعلى والأناضول. وعندما نتابع الطريق السياسي من حلب إلى كركميش ثم إلى الممالك الواقعة على الفرات الأعلى، تظهر مليد باعتبارها واحدة من أهم المحطات الشمالية في هذه الشبكة.

وبذلك تكمل مليد الصورة التي بدأناها مع ممالك شمال سورية. فبالستين وباتين وأونقي وسمأل وغرغوم وكموخ ومليد لم تكن دولًا منفصلة بلا روابط، بل كانت جزءًا من عالم سياسي متشابك تشكل بعد انهيار الإمبراطورية الحثية، وتداخلت فيه الموروثات الحثية واللووية مع صعود القوى الآرامية والتوسع الآشوري.

وقد أدى الصراع مع آشور في النهاية إلى فقدان معظم هذه الممالك استقلالها، لكن آثارها بقيت لتكشف عن مرحلة شديدة الأهمية من تاريخ المنطقة. وتوضح مليد خصوصًا أن التحولات التي شهدتها شمال سورية لم تتوقف عند الفرات، بل امتدت إلى أعاليه وإلى المناطق الواقعة على الطريق المؤدي إلى الأناضول.

كركميش حارسة الفرات

كانت كركميش من أهم المراكز السياسية في شمال بلاد الشام، وقامت على الضفة الغربية لنهر الفرات، في الموقع المعروف اليوم باسم جرابلس على الحدود السورية التركية، على مسافة تقارب ١٠٠ كيلومتر شمال شرق حلب. وكان موقعها عند أحد المعابر الرئيسية للفرات من أهم أسباب قوتها؛ فقد جعلها نقطة اتصال بين بلاد الشام والأناضول وبلاد الرافدين، ومركزًا تتحرك عبره الجيوش والقوافل والتجارة.

ولم تكن كركميش مدينة هامشية في تاريخ المنطقة؛ فقد ظهرت في الوثائق القديمة منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وازدهرت خلال العصر البرونزي الأوسط بوصفها مركزًا تجاريًا مهمًا. وتكشف أرشيفات ماري وألالاخ عن ملوكها في تلك المرحلة، ومن بينهم أبلحندا وابنه ياتار-أمي، كما ارتبطت المدينة بتجارة الأخشاب وبعلاقات سياسية مع ممالك سورية أخرى. وكان موقعها المسيطر على معبر الفرات يمنحها أهمية استراتيجية كبيرة.

وفي العصر البرونزي المتأخر دخلت كركميش في مجال نفوذ ميتاني، ثم أصبحت هدفًا للتوسع الحثي. وفي عهد الملك الحثي شوبيلوليوما الأول حاصر الحيثيون المدينة واستولوا عليها في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، ثم اتخذ شوبيلوليوما قرارًا مهمًا جعل كركميش مركزًا حثيًا رئيسيًا في شمال سورية، وعيّن ابنه بياسلي، المعروف بالاسم الحثي شَرّي-كوشوخ، حاكمًا عليها. وبذلك لم تعد كركميش مجرد مدينة محلية، بل أصبحت مركزًا للقوة الحثية في المنطقة.

استمرت الأسرة الحاكمة التي ارتبطت بالبيت الملكي الحثي في حكم كركميش. وتولى الحكم بعد بياسلي شَخُرونووا، ثم إني-تشوب الأول، الذي يبدو أن

عهده شهد ازدياد أهمية المدينة وتطور جهازها الإداري والبلاط الملكي. وتظهر وثائق مدينة إيمار القريبة من الفرات علاقة مباشرة بين كركميش وإدارة المنطقة، إذ تذكر نصوص من إيمار الملك إني-تشوب، كما تحمل بعض الوثائق أختامه أو تشير إلى سلطته.

وكانت كركميش في هذه المرحلة أكثر من مجرد مملكة تابعة للحيثيين؛ فقد أصبحت المركز الحثي الرئيسي في شرق سورية، ومن خلالها مارس الحيثيون نفوذهم على عدد كبير من الممالك والمدن الواقعة في شمال بلاد الشام. واستمر هذا الدور في عهد تالمي-تشوب، الذي كان ابن إني-تشوب، وتظهر له معاهدة مع الملك الحثي شوبيلوليوما الثاني في أواخر عهد الإمبراطورية الحثية.

ثم جاءت الأزمة الكبرى التي ضربت الإمبراطورية الحثية في نهاية العصر البرونزي. ومع انهيار السلطة المركزية في حاتوشا، لم تختفِ كركميش معها؛ بل استطاعت أن تحافظ على مكانتها السياسية. وتولى كوزي-تشوب الحكم بعد تالمي-تشوب، واتخذ لنفسه لقب الملك العظيم، في إشارة إلى أن كركميش أصبحت قوة مستقلة ووريثة مهمة للتقاليد السياسية الحثية بعد سقوط الإمبراطورية. وتظهر الأدلة اللاحقة استمرار تقاليد الحكم والكتابة والرموز الحثية-اللوية في كركميش خلال العصر الحديدي.

وهكذا لم تنتهِ قصة كركميش بسقوط الحيثيين. فقد استمرت المملكة في شمال سورية، وحافظت على إرث سياسي وثقافي ارتبط بالعالم الحثي، ثم أصبحت في القرون التالية إحدى الممالك السورية-الحثية المهمة. وتشير النقوش والآثار إلى استمرار استخدام الكتابة الهيروغليفية اللوية والتقاليد الفنية والسياسية التي امتدت من العصر الحثي إلى العصر الحديدي.

وكان موقع كركميش نفسه جزءًا من قوتها طوال هذه المراحل؛ فالمدينة قامت عند الفرات مباشرة، وكانت تتكون من القلعة والمدينة الداخلية والمدينة الخارجية، وانتشرت آثارها على مساحة واسعة، بينما يقع جزء من الموقع اليوم داخل الأراضي التركية والجزء الآخر في الأراضي السورية. وهكذا بقيت كركميش، عبر انتقالها من مركز تجاري إلى مملكة إقليمية ثم إلى مركز حثي ومملكة ما بعد حثية، واحدة من أهم المدن التي ربطت الفرات ببلاد الشام والأناضول.

مملكة حماة

كانت حماة من أبرز المراكز السياسية التي ظهرت في وسط بلاد الشام، وتحولت خلال العصر الحديدي إلى إحدى أهم الممالك الآرامية في المنطقة. وقد ارتبط صعودها بالتغير الكبير الذي أصاب النظام السياسي في بلاد الشام بعد انهيار ممالك العصر البرونزي المتأخر، حين ظهرت كيانات محلية جديدة ملأت الفراغ الذي تركته القوى الكبرى. ومن بين هذه الكيانات برزت حماة، التي لم تكن مجرد مدينة على العاصي، وإنما أصبحت مركزًا لمملكة امتد نفوذها في مراحل مختلفة على مناطق واسعة من وسط سورية وشمالها.

تعود جذور الاستيطان في حماة إلى عصور أقدم بكثير من قيام المملكة الآرامية، فقد كانت المدينة مركزًا مهمًا منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وظهرت في المصادر القديمة بأسماء مختلفة؛ ويظهر اسمها في المصادر المصرية بصيغة حَمَت أو حَمَاث، بينما عُرفت في المصادر الآشورية باسم Hamat. غير أن التحول الأهم في تاريخها وقع في العصر الحديدي، عندما أصبحت حماة مركزًا لكيان سياسي آرامي مستقل. ولا يعني ذلك أن سكان المملكة كانوا جميعًا من أصل آرامي منذ نشأتها؛ فالمنطقة احتفظت بسكانها وتقاليدها المحلية، ثم امتزجت بها العناصر الآرامية التي أصبحت صاحبة السلطة السياسية.

دخلت حماة في شبكة العلاقات التي جمعت الممالك الآرامية والفلستيّة والإسرائيلية في القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد. وتظهر في الروايات الكتابية بوصفها مملكة قائمة بذاتها، كما تظهر في المصادر الآشورية ضمن قائمة القوى التي كان على آشور التعامل معها عندما بدأت توسعها نحو بلاد الشام. وكان موقع المملكة في وسط سورية يجعلها حلقة بين الشمال

والجنوب؛ فمن جهة ارتبطت بالممالك الآرامية في شمال سورية، ومن جهة أخرى دخلت في علاقات وصراعات مع دمشق وإسرائيل وممالك المنطقة الواقعة على العاصي والفرات.

ومن أقدم الأحداث التي تكشف عن وزن حماة السياسي دخولها في صراع مع آرام دمشق. ففي القرن التاسع قبل الميلاد أصبحت دمشق القوة الآرامية الأكثر نشاطًا في جنوب ووسط سورية، وحاول ملوكها توسيع نفوذهم على حساب الممالك المجاورة. وفي هذه البيئة ظهر تحالف من الممالك الآرامية واجه التوسع الآشوري، وكانت حماة إحدى القوى المشاركة فيه. وتكشف هذه التحالفات أن الممالك السورية لم تكن تتحرك بصورة منفردة، بل كانت قادرة على جمع قوات متعددة عندما ظهر خطر خارجي يهدد استقلالها.

وفي عهد الملك الآشوري شلمنصر الثالث وصلت المواجهة بين آشور وممالك بلاد الشام إلى مرحلة حاسمة. ففي معركة قرقر سنة ٨٥٣ ق.م. واجه الجيش الآشوري تحالفًا كبيرًا من ملوك بلاد الشام، وكان من أبرز قادته أدد-إدري ملك دمشق وإيرحوليني ملك حماة. وتذكر حوليات شلمنصر الثالث إيرحوليني بين الملوك الذين واجهوا الجيش الآشوري، وتورد أعدادًا كبيرة من العربات والجنود التي نسبتها إلى قوات الحلفاء. ورغم ادعاء شلمنصر تحقيق النصر، فإن آشور لم تتمكن بعد المعركة من إخضاع حماة ودمشق إخضاعًا نهائيًا، واستمر استقلال الممالك السورية عقودًا أخرى.

كان إيرحوليني من أوائل ملوك حماة المعروفين بالاسم من المصادر الآشورية، وارتبط عهده بمحاولة الحفاظ على استقلال المملكة أمام التوسع الآشوري. وبعده دخلت حماة مرحلة أكثر تعقيدًا من الصراع الإقليمي، إذ لم تعد تواجه آشور وحدها، وإنما أصبحت جزءًا من المنافسة بين دمشق وحماة

وممالك الشمال. وتكشف المصادر أن قوة حماة لم تكن ثابتة طوال هذه الفترة؛ فقد كانت المملكة توسع نفوذها أحيانًا، ثم تضطر إلى الدفاع عن نفسها أمام جيران أقوى في أحيان أخرى.

وفي القرن الثامن قبل الميلاد ظهر زكّور، أحد أشهر ملوك حماة وأكثرهم حضورًا في المصادر الآرامية. وقد أصبح ملكًا على حماة ولُوأش، وهي المنطقة التي ارتبطت في المصادر باسم لوحوطي، واتخذ من مدينة حزرك مركزًا مهمًا في القسم الشمالي من مملكته. وكان وصول زكّور إلى الحكم نقطة تحول، لأن عهده ترك لنا وثيقة نادرة تكشف مباشرة عن طبيعة الصراعات بين الممالك الآرامية، وهي مسلة زكّور.

تروي المسلة أن تحالفًا كبيرًا من الملوك حاصر زكّور في حزرك، وكان على رأس هذا التحالف بن هدد، ملك آرام دمشق، إلى جانب عدد من الملوك الذين انضموا إليه. وكان هدف الحملة القضاء على زكّور واستعادة المنطقة التي أصبحت تحت حكمه. ويصف زكّور في نصه كيف لجأ إلى الإله بعل شميم طالبًا العون، ثم تمكن من كسر الحصار والانتصار على خصومه. وبعيدًا عن الصياغة الدينية التي استخدمها الملك، تكشف المسلة عن حقيقة سياسية مهمة حماة في عهد زكّور كانت قوة إقليمية قادرة على تحدي دمشق، وأن الصراع بين الممالك الآرامية لم يكن أقل حدة من صراعها مع القوى الأجنبية.

ولا تكمن أهمية مسلة زكّور في رواية المعركة وحدها، فهي واحدة من أهم النصوص الآرامية الملكية التي وصلت من بلاد الشام، وتمنحنا صورة عن لغة البلاط الآرامي وعن مفهوم الملك للسلطة والحرب والعلاقة مع الإله. كما أنها تؤكد أن حماة لم تكن مملكة هامشية؛ فقد كان سقوطها أو صعودها يؤثر

في توازن القوى في شمال ووسط سورية، ولذلك استدعت المواجهة حولها تحالفًا من عدة ملوك.

بعد عهد زكّور استمرت حماة في مواجهة التوسع الآشوري. وكانت آشور قد بدأت في عهد تغلات فلاسر الثالث اتباع سياسة مختلفة عن الحملات السابقة؛ فلم تعد تكتفي بالحصول على الجزية من الممالك السورية، بل أخذت تعمل على إسقاطها وضم أراضيها مباشرة إلى الإمبراطورية. وفي ٧٣٨ ق.م. تقريبًا أصبحت حماة من الممالك التي اضطرت إلى دفع الجزية للملك الآشوري، وهو ما كشف بداية فقدان استقلالها الحقيقي. ومع تزايد الضغط الآشوري أخذت مساحة المملكة تتقلص، وتحولت تدريجيًا من قوة إقليمية مستقلة إلى دولة تابعة لآشور.

حاول ملك حماة ياو-بيدي في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد استعادة استقلال المملكة، فقاد تمردًا ضد آشور وانضم إليه عدد من القوى المحلية، من بينها أرواد ودمشق وسمأل وغيرها من القوى التي رأت في اضطراب الوضع الآشوري فرصة للتخلص من الهيمنة. لكن الملك الآشوري سرجون الثاني تحرك لقمع الثورة، وهزم ياو-بيدي، ثم أسرَه وعاقبه عقابًا شديدًا، وأعاد تنظيم حماة. وبعد هذه الحملة فقدت المملكة استقلالها السياسي، وأصبحت أراضيها جزءًا من النظام الإداري الآشوري.

ومع ذلك لم تختفِ حماة بعد سقوط مملكتها. فالمدينة استمرت مركزًا مهمًا خلال الحكم الآشوري، ثم تعاقبت عليها القوى التي سيطرت على سورية في القرون التالية. ومع انتقال المنطقة إلى الحكم البابلي ثم الفارسي ثم العصور الهلنستية والرومانية تغيرت مكانة حماة ووظيفتها، لكن اسم المدينة بقي حاضرًا. وهكذا فإن نهاية مملكة حماة لم تكن نهاية حماة نفسها، بل كانت

نهاية مرحلة سياسية أصبحت فيها المدينة عاصمة لمملكة مستقلة وقوة رئيسية في وسط بلاد الشام.

وتكشف قصة حماة عن التحول الكبير الذي شهدته سورية في العصر الحديدي؛ فقد بدأت المدينة من جذور حضارية أقدم بكثير، ثم أصبحت مركزًا لمملكة آرامية استطاعت أن تنافس دمشق وتدخل في تحالفات كبرى ضد آشور، قبل أن تجد نفسها أمام إمبراطورية لم يعد هدفها الحصول على الجزية وإنما القضاء على استقلال الممالك المحلية. ومع سقوط حماة في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد انتهى عصرها كدولة مستقلة، لكن إرثها السياسي بقي جزءًا أساسيًا من تاريخ وسط سورية، وظلت المدينة واحدة من أهم المراكز التي حفظت استمرارية الحياة الحضرية على امتداد العصور.

لُوأش / لوحوطي وحتريكا

صيغ الاسم اختلفت بين المصادر. والأهم من الاسم هو طبيعة الكيان نفسه؛ فلوحوطي لم تكن مملكة مستقلة واضحة المعالم مثل حماة أو دمشق، بل كانت منطقة سياسية مترابطة في شمال سورية، وكانت المصادر الآشورية تصفها بوصفها بلادًا تضم مدنًا وقوات، من دون أن تقدم لنا سلسلة ملوك مستقلة لها.

كانت المنطقة مرتبطة في العصور الأقدم بـ نوخاشي، ثم ظهرت في العصر الحديدي ضمن المشهد السياسي الجديد الذي تشكل بعد انهيار القوى الكبرى في نهاية العصر البرونزي. وأبرز مراكزها كان حزرك/هترِكّة (Hatarikka)، التي يربطها الباحثون بموقع تل أفيس جنوب غرب حلب. وكان هذا الموقع يقع في منطقة بالغة الأهمية، لأنه يشكل نقطة اتصال بين شمال سورية ومنطقة حماة وحوض العاصي. ومن هنا لم تكن لُوأش هامشًا جغرافيًا؛ بل كانت جزءًا من المنطقة التي عبرت من خلالها الصراعات بين الممالك الآرامية والقوى الآشورية.

كانت تضم مدنًا وقوة عسكرية، وأن حزرك كانت مركزًا سياسيًا مهمًا بما يكفي لأن تكون هدفًا لتحالف إقليمي واسع. وبعد اتحادها مع حماة لم تعد لُوأش دولة منفصلة، بل أصبحت الجزء الشمالي من مملكة حماة. ثم واصلت المنطقة مواجهة الحملات الآشورية؛ فهاجمها شلمنصر الرابع في القرن الثامن قبل الميلاد، ثم آشور دان الثالث، إلى أن ضمها تغلات فلاسر الثالث إلى الدولة الآشورية سنة ٧٣٧ ق.م. تقريبًا. وهكذا انتهى وجودها ككيان سياسي مستقل، بعد أن انتقلت من منطقة مرتبطة بتراث نوخاشي إلى كيان إقليمي آرامي ثم إلى جزء من مملكة حماة، قبل أن تبتلعها الإدارة الآشورية.

مملكة لُهوتي / حَتَريكا

ظهرت مملكة لُهوتي، التي ارتبط اسمها في المصادر الآشورية بمدينة حتريكا (Hatarikka)، في شمال سورية خلال العصر الحديدي، وكانت واحدة من الممالك الآرامية التي تشكلت بعد انهيار النظام السياسي الذي فرضته الإمبراطورية الحيثية على سورية في نهاية العصر البرونزي. وقد عُرفت المملكة في السجلات الآشورية بصورة خاصة بسبب موقعها في المنطقة الواقعة إلى الشمال من حماة، وعلى الطرق التي تصل وسط سورية بشمالها.

وتأتي أهمية لُهوتي من موقعها ضمن الحزام السياسي الممتد بين حماة وأرفاد وباتين. فهذه المنطقة لم تكن فراغًا بين الممالك الكبرى، وإنما كانت تضم كيانات محلية تتحكم في المدن والطرق الزراعية والتجارية. وكانت لُهوتي إحدى هذه القوى، وظهرت في وقت أصبحت فيه الممالك الآرامية لاعبًا أساسيًا في المشهد السياسي السوري.

كانت حتريكا المركز الرئيسي للمملكة، وقد ورد اسمها في السجلات الآشورية بصيغ مختلفة. ويرتبط موقعها في الدراسات الحديثة بمنطقة شمال حماة، لكن تحديد موقعها الأثري بدقة ظل موضع نقاش، ولذلك ينبغي الحذر من ربطها بقرية أو تل حديث بعينه على أنه أمر محسوم. والأهم أن المصادر الآشورية تضعها بوضوح ضمن المجال السياسي للممالك السورية الداخلية.

لم تكن لُهوتي من الممالك التي تركت لنا نقوشًا ملكية كثيرة، ولذلك تأتي معظم معرفتنا بها من السجلات الآشورية، وهي سجلات كانت تهتم أساسًا بتسجيل الحملات العسكرية والجزية والفتوحات. وهذا يعني أن صورة

المملكة التي وصلت إلينا مرتبطة بدرجة كبيرة بعلاقتها بآشور، وليس بتاريخها الداخلي الكامل.

في القرن التاسع قبل الميلاد بدأت آشور تتجه بقوة نحو سورية. ومع حملات شلمنصر الثالث أصبحت الممالك الآرامية الشمالية والوسطى أمام قوة إمبراطورية تتقدم تدريجيًا من الفرات باتجاه الساحل والداخل السوري. وكانت لُهوتي تقع ضمن هذه المنطقة التي أصبحت مسرحًا للحملات الآشورية المتكررة.

وتشير السجلات الآشورية إلى أن لُهوتي كانت إحدى الممالك التي واجهت الضغط الآشوري خلال القرن التاسع قبل الميلاد. ولم تكن مقاومتها منفصلة عن مقاومة الممالك الأخرى؛ فقد كانت الممالك السورية تدرك أن توسع آشور يهدد استقلالها جميعًا، ولذلك ظهرت في المنطقة تحالفات متغيرة تجمع أحيانًا عددًا من الملوك لمواجهة الجيوش الآشورية.

وكانت علاقتها بالممالك المجاورة تتأثر بموازين القوى. فحماة كانت قوة رئيسية في وسط سورية، وأرفاد قوة كبيرة في الشمال، بينما كانت باتين/أونقي تسيطر على منطقة سهل العمق. وبين هذه القوى ظهرت لُهوتي بوصفها مملكة تقع في مجال التماس بين شمال سورية ووسطها، وهو ما جعل موقعها السياسي حساسًا.

وتظهر أهمية المملكة بصورة أكبر في القرن الثامن قبل الميلاد، عندما أصبحت السياسة الآشورية أكثر تنظيمًا في سورية. فلم تعد آشور تكتفي بالحصول على الجزية من الملوك المحليين، بل بدأت بإزالة الممالك المستقلة وتحويل أراضيها تدريجيًا إلى أقاليم آشورية.

وفي عهد تغلات فلاسر الثالث تعرضت لُهوتي للضغط الآشوري المباشر. وتشير السجلات إلى أن المنطقة دخلت ضمن العمليات العسكرية الآشورية التي استهدفت الممالك السورية، وانتهى استقلال لُهوتي عندما ضمت آشور أراضيها إلى نظامها الإداري. وأصبح اسم حتريكا مرتبطًا بعد ذلك بالإدارة الآشورية بدلًا من مملكة مستقلة.

وتكشف قصة لُهوتي عن تحول مهم في تاريخ شمال سورية. ففي البداية كانت المنطقة موزعة بين ممالك محلية صغيرة ومتوسطة الحجم، لكل منها حاكمها ومراكزها وطرقها، وكانت هذه الممالك قادرة على عقد التحالفات ومقاومة القوى الخارجية. لكن مع توسع آشور تحولت هذه الخريطة تدريجيًا إلى شبكة من الأقاليم الخاضعة للإمبراطورية.

كما تساعد لُهوتي على فهم طبيعة الانتشار الآرامي في سورية. فالآراميون لم يكونوا دولة واحدة موحدة تمتد على بلاد الشام كلها، بل تشكلت بينهم ممالك متعددة، لكل واحدة منها مجال سياسي مستقل. وكانت لُهوتي واحدة من هذه الممالك، إلى جانب حماة ودمشق وأرفاد وغيرها، وكانت علاقاتها بهذه القوى تقوم على المصالح والتهديدات المشتركة أكثر مما تقوم على وحدة سياسية واحدة.

وكان اقتصاد المملكة مرتبطًا ببيئة شمال سورية الزراعية وبالطرق التي تمر بين المراكز الداخلية. ورغم أن المصادر لا تسمح بإعادة بناء اقتصاد لُهوتي بالتفصيل، فإن موقعها بين حماة والمراكز الشمالية يجعل السيطرة على طرق الحركة والزراعة المحلية عنصرًا أساسيًا في قوتها. كما أن وجودها في منطقة الاتصال بين شمال سورية ووسطها جعلها عرضة للضغط من الممالك المجاورة ومن آشور في الوقت نفسه.

ولا يمكن فصل تاريخ لُهوتي عن التحولات التي أصابت الممالك السورية خلال القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد. ففي الفترة التي كانت فيها حماة وأرفاد وباتين تحاول الحفاظ على استقلالها، كانت لُهوتي جزءًا من المشهد نفسه. وعندما بدأت آشور بإسقاط هذه الممالك واحدة تلو الأخرى، فقدت لُهوتي قدرتها على البقاء مستقلة.

وهكذا انتهى تاريخ لُهوتي بوصفها مملكة مستقلة في القرن الثامن قبل الميلاد، لكنها بقيت شاهدًا على مرحلة كان فيها شمال سورية مقسمًا بين عدد كبير من الممالك الآرامية واللووية. ومن خلال حتريكا نستطيع رؤية المنطقة الواقعة بين حماة والممالك الشمالية لا باعتبارها هامشًا جغرافيًا، بل باعتبارها مساحة سياسية نشطة شاركت في الصراع الذي دار بين الممالك السورية الصاعدة والإمبراطورية الآشورية.

بيت أغوشي

كانت بيت أغوشي من الكيانات الآرامية التي ظهرت في شمال سورية خلال العصر الحديدي، واتخذت من أراضي أرفاد مركزًا لها في موقع تل رفعت على بعد ٣٠كم شمال مدينة حلب، ولذلك ارتبط اسمها بمدينة أرفاد التي أصبحت لاحقًا واحدة من أهم المراكز السياسية في شمال بلاد الشام. واسم بيت أغوشي لا يعني مملكة بالمعنى التقليدي لاسم الدولة، بل يشير إلى البيت الحاكم أو السلالة السياسية التي حكمت الإقليم، وهي طريقة شائعة في تسمية عدد من الكيانات في المصادر الآشورية.

برزت بيت أغوشي في القرن التاسع والثامن قبل الميلاد، في مرحلة كانت فيها الممالك الآرامية تنتشر في شمال سورية وتتقاسم النفوذ فيما بينها. وكانت أرفاد ومحيطها تقعان في منطقة استراتيجية تصل الداخل السوري بالمناطق الشمالية، ولذلك أصبحت بيت أغوشي قوة محلية مهمة، رغم أنها لم تبلغ حجم مملكة حماة أو قوة آرام دمشق.

دخلت بيت أغوشي في صراع متزايد مع الإمبراطورية الآشورية التي بدأت خلال القرن التاسع قبل الميلاد بفرض نفوذها على شمال سورية. وكان حكامها يحاولون في البداية الحفاظ على استقلالهم من خلال دفع الجزية أو الدخول في تحالفات مع الممالك السورية الأخرى، لكن التوسع الآشوري جعل هذا الاستقلال أكثر صعوبة مع مرور الوقت.

كان أبرز حكام بيت أغوشي ماتي إيلو، الذي ظهر في المصادر الآشورية خلال عهد الملك شلمنصر الثالث. وتكشف السجلات أن أرفاد كانت ضمن القوى التي واجهت التوسع الآشوري، وأن ماتي إيلو حاول الحفاظ على

استقلال كيانه في مواجهة الحملات المتكررة. وفي سنة ٧٤٣ ق.م. تقريبًا، خلال عهد تغلات فلاسر الثالث، تعرضت أرفاد لحصار آشوري شديد بعد أن رفضت الخضوع الكامل.

لم يكن حصار أرفاد حادثة منفردة، بل كان جزءًا من سياسة آشورية منظمة لإسقاط الممالك الآرامية في شمال سورية. استمر الحصار سنوات، وتمكنت آشور في النهاية من إسقاط المدينة وضم أراضيها. وبذلك انتهى استقلال بيت أغوشي، وأصبحت المنطقة جزءًا من الإدارة الآشورية.

وتكمن أهمية بيت أغوشي في أنها تمثل نموذجًا واضحًا للممالك الآرامية الشمالية التي ظهرت بعد انهيار نظام العصر البرونزي، ثم وجدت نفسها بين قوتين الممالك السورية المحلية من جهة، والإمبراطورية الآشورية الصاعدة من جهة أخرى. ولم تستطع بيت أغوشي الحفاظ على استقلالها أمام التفوق العسكري والإداري لآشور، لكن تاريخها محفوظ في السجلات الآشورية التي توضح طبيعة الصراع على شمال سورية في القرن الثامن قبل الميلاد.

بيت عديني

قامت بيت عديني على الفرات الأعلى، في المنطقة الواقعة حول تل أحمر، المدينة التي عُرفت في العصر الحديدي باسم تل برسيب، بينما ظهر اسمها الأقدم في النقوش اللويّة بصيغة ماسواري. وكان موقعها على الفرات هو أساس قوتها؛ فهي لم تكن مملكة داخلية بعيدة عن طرق الجيوش، بل دولة قامت على أحد أهم المعابر النهرية التي تصل شمال بلاد الشام ببلاد الرافدين. ولهذا أصبحت بيت عديني من أبرز الكيانات الآرامية التي ظهرت على الفرات، إلى جانب كركميش، ووجدت نفسها في موقع حساس بين الممالك السورية من جهة والإمبراطورية الآشورية من جهة أخرى. وتشير الدراسات إلى أن تاريخ تل برسيب نفسه يعكس انتقال المنطقة من حكم ذي تقاليد لويّة إلى سيطرة الآراميين الذين أسسوا بيت عديني وجعلوا المدينة مركزًا لمملكتهم.

كان من أبرز ملوك المرحلة الآرامية أحوني بن عديني، الذي أصبح في القرن التاسع قبل الميلاد الخصم الأهم للتوسع الآشوري في هذه المنطقة. وفي عهد شلمنصر الثالث تحولت بيت عديني إلى هدف مباشر للحملات الآشورية؛ فقد كان إخضاع الفرات خطوة ضرورية لفتح الطريق أمام الجيوش الآشورية نحو شمال سورية، ولذلك لم يكن سقوط بيت عديني مجرد حادثة محلية. وتشير السجلات الآشورية إلى أن أحوني تخلى عن مدينته الملكية تل برسيب أمام تقدم شلمنصر، فعبر الفرات واتخذ من شيتامرات، وهي موقع جبلي على النهر، حصنًا أخيرًا له. وهناك واصل مقاومته، لكن القوات الآشورية تمكنت في النهاية من اقتحام موقعه وأسر الملك وأفراد أسرته ونقلهم إلى آشور.

كان سقوط أحوني نقطة التحول الحاسمة في تاريخ بيت عديني. ففي ٨٥٦ ق.م. تقريبًا استولى شلمنصر الثالث على تل برسيب، وأنهى استقلال المملكة، ثم أعاد تنظيم المدينة وفق المصالح الآشورية. وأطلق عليها اسم كار شلمنصر، وأصبحت قاعدة عسكرية وإدارية متقدمة على الفرات. ومن هنا تغيرت وظيفة المدينة فالمكان الذي كان عاصمة لمملكة آرامية تدافع عن استقلالها أصبح مركزًا للإمبراطورية التي أسقطتها. واستمرت أهميته بسبب موقعه على النهر، وبقيت المدينة تؤدي دورًا في إدارة المنطقة والربط بين بلاد الرافدين وشمال سورية.

وتكشف قصة بيت عديني عن طبيعة الممالك الآرامية على الفرات؛ فلم تكن هذه الكيانات مجرد مراكز محلية منعزلة، بل كانت تتحكم في ممرات استراتيجية جعلتها جزءًا من الصراع بين القوى الكبرى. ولهذا ظهرت بيت عديني في مواجهة آشور بصورة متكررة، كما دخلت أراضيها في المجال الذي كانت تتنافس عليه كركميش والممالك الآرامية الأخرى. وبسقوط أحوني لم تختفِ أهمية المنطقة، وإنما تغير صاحب السلطة عليها؛ فانتقلت من مملكة مستقلة ذات هوية آرامية إلى مقاطعة آشورية، وأصبحت تل برسيب واحدة من القواعد التي ساعدت آشور على تثبيت نفوذها في سورية.

بيت بحياني وغوزانا

برزت بيت بحياني في شمال بلاد الشام خلال العصر الحديدي بوصفها إحدى الدويلات الآرامية التي نشأت في المنطقة الواقعة حول منابع الخابور، واتخذت من غوزانا مركزًا لها، وهي المدينة التي تقوم بقاياها اليوم في تل حلف بالقرب من رأس العين. وكان اختيار غوزانا ذا أهمية سياسية واضحة؛ فالمدينة قامت عند منطقة غنية بالمياه في منابع الخابور، وعلى طريق يصل بلاد الرافدين بشمال سورية والساحل المتوسطي، وهو الطريق الذي أصبح في العهد الآشوري جزءًا من طريق الملك. ولذلك امتلكت بيت بحياني موقعًا يسمح لها بالتحكم في الحركة بين مناطق الجزيرة السورية والفرات من جهة، وشمال بلاد الشام من جهة أخرى. وتظهر الأدلة أن الآراميين أعادوا توطين تل حلف في العصر الحديدي واتخذوها مركزًا سياسيًا جديدًا، بعد أن كانت المنطقة قد عرفت مراكز مهمة في عصور أقدم.

لا نعرف بداية بيت بحياني من خلال رواية تاريخية متصلة، بل تظهر صورتها تدريجيًا من خلال الآثار والنقوش والسجلات الآشورية. ويبدو أن الكيان الآرامي تشكل في القرن العاشر قبل الميلاد تقريبًا، ثم أخذ يرسخ سلطته حول غوزانا. وكانت المملكة من بين الكيانات التي واجهت التوسع الآشوري في شمال سورية والجزيرة، لكن علاقتها بآشور لم تكن ثابتة على صورة واحدة؛ فقد انتقلت من الاستقلال إلى الخضوع السياسي، ثم أصبحت جزءًا من النظام الإداري الآشوري. وتذكر المصادر وجود عدة حكام للمملكة، غير أن أشهرهم وأكثرهم حضورًا في الآثار هو الملك كابارا، الذي ترك وراءه واحدًا من أهم الشواهد على تطور العمارة والفن في الممالك الآرامية الشمالية.

وفي عهد كابارا بلغت غوزانا مرحلة لافتة من الازدهار الملكي. فقد أقام فيها قصرًا ملكيًا ضخمًا، عُرف في الدراسات باسم بيت حيلاني، وزُينت واجهاته ومنشآته بمنحوتات حجرية ضخمة تجمع بين الأشكال البشرية والحيوانية والكائنات المركبة. ولم تكن هذه الزخارف مجرد تزيين؛ فقد كانت جزءًا من الصورة التي أراد الملك أن يقدم بها نفسه وسلطته، وأظهرت امتزاج التقاليد الفنية الآرامية بالموروث الفني الأقدم في شمال سورية والأناضول. ومن خلال هذا القصر نستطيع أن نرى أن بيت بحياني لم تكن مجرد دويلة قبلية صغيرة، بل امتلكت بلاطًا ملكيًا ومشروعًا معماريًا وفنيًا يعبر عن سلطة منظمة وهوية سياسية واضحة.

ومع تقدم آشور غربًا أصبحت غوزانا في مواجهة مباشرة مع واحدة من أقوى إمبراطوريات الشرق الأدنى. وفي القرن التاسع قبل الميلاد دخلت المملكة في دائرة النفوذ الآشوري، ثم فقدت استقلالها نهائيًا مع ضمها إلى الدولة الآشورية. وتختلف التفاصيل الزمنية الدقيقة في المصادر الحديثة حول لحظة الإخضاع النهائي، لكن المؤكد أن غوزانا تحولت بعد ذلك من عاصمة كيان آرامي مستقل إلى مركز إداري داخل الإمبراطورية الآشورية. ولم يؤد سقوط المملكة إلى نهاية المدينة؛ فقد بقيت غوزانا مأهولة واستمرت أهميتها خلال العصور التالية، بينما اختفى اسم بيت بحياني بوصفه كيانًا سياسيًا مستقلًا. وهكذا انتهى تاريخ المملكة بانتصار آشور، لكن غوزانا بقيت شاهدة على مرحلة كاملة من تشكل الممالك الآرامية في شمال سورية.

مملكة زماني

كانت زماني كيانًا سياسيًا صغيرًا في شمال بلاد الشام، ويظهر اسمها في المصادر الآشورية ضمن مجموعة من الممالك والمناطق التي واجهت توسع آشور في سورية. ولا ينبغي الخلط بين اسم زماني وبين ممالك آرامية كبرى مثل دمشق أو حماة؛ فالمعلومات المتاحة عنها أقل بكثير، كما أن تحديد موقعها وحدودها بدقة ما يزال موضع نقاش بين الباحثين.

برز اسم زماني خلال الفترة التي بدأت فيها آشور بتوسيع نفوذها غربًا، خصوصًا في القرن التاسع قبل الميلاد. وكانت المنطقة السورية في ذلك الوقت مقسمة بين عدد كبير من الممالك والمدن والكيانات الصغيرة، ولم يكن هناك مركز سياسي واحد يسيطر على الشمال كله. ولهذا ظهرت زماني في المصادر الآشورية ضمن قائمة القوى التي كان على الملوك الآشوريين إخضاعها أو الحصول على ولائها.

وتكشف السجلات الآشورية أن هذه الكيانات لم تكن مجرد تجمعات سكانية، بل كانت تمتلك حكامًا وموارد وقدرة على تقديم الجزية أو رفضها. وكان موقع زماني ضمن منطقة التنافس بين القوى السورية وآشور يجعل موقفها السياسي مرتبطًا بميزان القوى الإقليمي؛ فإذا تراجعت آشور استطاعت الممالك المحلية توسيع استقلالها، وإذا عادت الحملات الآشورية اضطرت إلى الخضوع.

ومع استمرار الحملات الآشورية في شمال سورية تقلصت مساحة الاستقلال أمام زماني، كما حدث مع عدد كبير من الدويلات الصغيرة. وأعيد تنظيم

المناطق التي سقطت في يد آشور ضمن النظام الإمبراطوري، سواء من خلال فرض الجزية أو إنشاء وحدات إدارية مباشرة أو نقل السكان.

ولا تسمح المصادر الحالية بإعادة بناء سلسلة ملوك طويلة أو تاريخ داخلي مفصل لزماني كما نستطيع أن نفعل مع دمشق أو حماة.

كيان سياسي شمالي ظهر في سجلات العصر الحديدي ودخل في مجال التوسع الآشوري، ثم فقد استقلاله مع توسع الإمبراطورية. وتبقى قيمتها في أنها تساعد على فهم كثرة الدويلات التي كانت تملأ خريطة شمال بلاد الشام قبل أن توحد آشور المنطقة بالقوة.

هاديبي

ظهر اسم هاديبي في سياق الكيانات السياسية القديمة في بلاد الشام، لكنه من الأسماء التي تحتاج إلى قدر كبير من الحذر في التعامل معها؛ فالمصادر التي وصلتنا لا تسمح ببناء تاريخ مملكة متكامل لها، ولا تقدم لنا سلسلة واضحة من الملوك والأحداث كما تفعل مع دمشق أو أرفاد. ولذلك لا يصح تحويل الاسم إلى مملكة كبيرة مستقلة لمجرد وروده في المصادر.

يرتبط الاسم بسياق جغرافي وسياسي في شمال بلاد الشام خلال العصر الحديدي، وهي الفترة التي كانت فيها المنطقة موزعة بين الممالك الآرامية والمدن المحلية والمراكز الواقعة تحت نفوذ القوى الكبرى. وكانت هذه الكيانات تتحرك داخل شبكة معقدة من العلاقات، فتدفع الجزية لآشور أحيانًا، أو تتحالف مع جيرانها أحيانًا أخرى، أو تدخل في صراع معها عندما تتراجع السيطرة الإمبراطورية.

وتكمن أهمية هاديبي في أن ورود اسمها في السجلات القديمة يوضح طبيعة الخريطة السياسية في تلك الفترة؛ فبلاد الشام لم تكن مقسمة إلى عدد قليل من الدول الكبرى فقط، بل كانت تضم عشرات الكيانات الصغيرة التي قد تظهر في المصادر لفترة محدودة ثم تختفي بعد ضمها إلى قوة أكبر ومع تقدم الإمبراطورية الآشورية نحو غرب الفرات أصبحت هذه الكيانات أمام خيارين الخضوع ودفع الجزية، أو المقاومة ثم التعرض للحملات العسكرية. وبمرور الوقت اختفت الأسماء السياسية المستقلة لكثير من هذه الدويلات، بعدما أعادت آشور تقسيم المنطقة إلى أقاليم تابعة لها فقيمتها التاريخية ليست في حجمها، وإنما في كونها شاهدًا على عالم الدويلات الصغيرة الذي سبق اكتمال السيطرة الآشورية على بلاد الشام.

حالوبي

يظهر اسم حالوبي ضمن الأسماء السياسية والجغرافية التي ارتبطت ببلاد الشام القديمة، إلا أن المعلومات المتاحة عنه أقل وضوحًا من تلك التي نملكها عن الممالك الكبرى. ولذلك فإن التعامل معه يحتاج إلى التمييز بين الاسم الجغرافي والكيان السياسي؛ فليس كل اسم ورد في السجلات القديمة يمثل مملكة مستقلة ذات عاصمة وسلالة ملكية.

كانت بلاد الشام في العصر الحديدي تضم عددًا كبيرًا من المناطق والدويلات التي تتداخل حدودها وتتغير تبعًا لقوة الممالك المحيطة بها. وفي الشمال كانت الممالك الآرامية، وحماة، وأرفاد وغيرها، تتنافس على طرق التجارة والأراضي الزراعية، بينما كانت آشور تتوسع تدريجيًا من الشرق. وفي هذا السياق تظهر أسماء لكيانات أصغر أصبحت لاحقًا جزءًا من ممالك أكبر أو من الإدارة الآشورية.

ومع تقدم الحملات الآشورية خلال القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد فقدت معظم الدويلات الصغيرة قدرتها على الاحتفاظ باستقلالها. وكانت آشور تعتمد أولًا على الجزية وإجبار الحكام المحليين على الاعتراف بملكها، ثم تلجأ إلى الضم المباشر ونقل السكان عندما تتمرد إحدى المناطق. ولهذا اختفت أسماء سياسية كثيرة من المصادر بعد دخولها النظام الآشوري.

حين تروي الأرض حكاياتها الشامية

بين الممالك الكبرى والمدن المنسية

بلاد الشام بين الممالك والإمبراطوريات حين ننظر إلى تاريخ الممالك التي تناولها هذا الجزء، نكتشف أن بلاد الشام القديمة لم تكن أرضًا تحكمها قوة واحدة بصورة دائمة، بل كانت عالمًا متحركًا تتغير فيه موازين القوة باستمرار.

في العصر البرونزي الأوسط كان المجال أوسع أمام الممالك المحلية لتبني قوتها.

لكن خلال العصر البرونزي المتأخر أصبحت الإمبراطوريات الكبرى أكثر حضورًا.

دخلت مصر بقوة في شؤون بلاد الشام، ثم أصبحت ميتاني قوة أساسية في الشمال، وبعدها تقدم الحثيون وأعادوا تشكيل الخريطة السياسية.

وأصبحت الممالك المحلية مضطرة إلى التعامل مع هذه القوى لكنها لم تفقد دورها بالكامل فالحاكم المحلي بقي عنصرًا مهمًا، وكان ولاؤه يمكن أن يغير ميزان القوى في منطقة كاملة.

من أهم ما جعلنا قادرين على معرفة هذه الممالك اليوم الوثائق التي تركتها تلك المرحلة.

ألواح ماري كشفت لنا جانبًا من العلاقات السياسية في العصر البرونزي الأوسط.

وأرشيف ألالاخ أعطانا معلومات عن الإدارة والاقتصاد والعلاقات السياسية.

أما رسائل تل العمارنة، فقد كشفت عالمًا كاملًا من الحكام الذين كانوا يكتبون إلى الفرعون، يطلبون المساعدة أو يحذرون من أعدائهم أو يعلنون ولاءهم.

ومن خلال هذه الوثائق نستطيع أن نسمع أصوات أشخاص عاشوا قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام.

حاكم يخاف من جاره وملك يطلب المساعدة ومبعوث يحمل رسالة إلى قصر بعيد وحاكم آخر يغيّر تحالفه بعدما تغير ميزان القوى.

وهذه التفاصيل الصغيرة هي التي تجعل تاريخ الممالك القديمة تاريخًا حيًا، لا مجرد أسماء محفوظة في قائمة.

تعلمنا قصة هذه الممالك أيضًا أن أهمية الدولة لم تكن تقاس بمساحتها وحدها قد تكون المملكة صغيرة، لكنها تقع في مكان يجعلها ضرورية للإمبراطوريات

وقد تكون المدينة محدودة الحجم، لكنها تتحكم في طريق أو مركز سياسي أو مورد مهم ولهذا ظهرت أمورو وقادش وتونيب وغيرها في حسابات القوى الكبرى.

كان امتلاك مدينة واحدة أو ضمان ولاء حاكم واحد قادرًا على تغيير وضع منطقة كاملة ثم تغير كل شيء لكن النظام الذي حكم بلاد الشام خلال العصر البرونزي لم يستمر إلى الأبد.

في أواخر العصر البرونزي المتأخر بدأت سلسلة من الأزمات تضرب شرق المتوسط تراجعت إمبراطوريات، ودُمرت مدن، وانقطعت بعض طرق التجارة، وتحركت جماعات سكانية، واختفت سلالات حاكمة.

وكانت بلاد الشام من أكثر المناطق تأثرًا بهذه التحولات.

فالممالك التي بدت قوية قبل ذلك بوقت قصير بدأت تختفي من السجلات.

لم يكن سقوطها جميعًا نتيجة معركة واحدة أو غزو واحد؛ بل كان جزءًا من تغير واسع أصاب النظام السياسي والاقتصادي الذي قامت عليه حضارات العصر البرونزي المتأخر.

ومع نهاية هذا العصر انتهى عالم سياسي كامل اختفت ممالك، وتغيرت حدود القوى، وظهرت كيانات سياسية جديدة لكن سكان بلاد الشام لم يختفوا.

استمرت المدن أو أعيد بناء بعضها، واستمرت اللغات والعادات والتقاليد، وظهرت في القرون التالية شعوب وممالك جديدة ستصنع فصولًا أخرى من تاريخ المنطقة وهكذا لم تكن نهاية العصر البرونزي نهاية تاريخ بلاد الشام، بل كانت نهاية مرحلة وبداية مرحلة أخرى.

من رحم الأرض

ما نراه اليوم من آثار هذه الممالك ليس سوى الجزء الذي استطاعت الأرض أن تحفظه تحت التراب بقيت قصور الملوك، وأختام الموظفين، والأواني، والأسلحة، والمقابر، والألواح الطينية.

وبفضل هذه البقايا استطعنا أن نعيد أسماء ممالك كادت أن تختفي من الذاكرة.

يمحاض- ألالاخ- قطنا– أمورو- قادش – تونيب- نيا وغيرها.

ليست هذه مجرد أسماء قديمة وراء كل اسم مدينة، وسكان، وملوك، وصراعات، وتحالفات، وحياة يومية عاشها أناس لم يعرفوا أنهم سيصبحون بعد آلاف السنين جزءًا من تاريخ يُعاد اكتشافه.

وهذا هو معنى الرحلة التي حملناها في هذا الجزء

أن نعود إلى بلاد الشام لا باعتبارها مساحة على الخريطة، بل باعتبارها أرضًا صنعت فيها الممالك تاريخها، ثم دفنتها الأرض، حتى أعادت لنا آثارها شيئًا من أصواتها.

الزمن لم يترك هذه الممالك جميعًا بالطريقة نفسها.

بعضها ترك قصورًا وأرشيفات وبعضها ترك نقوشًا وتماثيل.

بعضها لم يترك سوى اسم في رسالة بعيدة.

وبعضها اختفى حتى كادت الذاكرة تنساه، قبل أن تعيد الحفريات اسمه إلى الحياة وهنا تكمن عظمة علم الآثار.

فالأرض لا تنسى تمامًا قد تدفن مدينة وقد تسقط مملكة وقد تختفي سلالة.

لكن طبقات التراب تحتفظ أحيانًا بما لم تستطع كتب التاريخ الاحتفاظ به.

وعندما ينزل عالم الآثار إلى تلك الطبقات، لا يبحث عن حجارة صامتة فقط.

إنه يبحث عن أصوات الماضي عن إنسان عاش هنا عن ملك حكم هنا.

عن فلاح زرع أرضًا لم يعرف أن اسمه سيُنسى.

عن تاجر حمل بضاعته عبر طريق لم يعد موجودًا.

وعن مدينة كانت ذات يوم تعج بالحياة، ثم أصبحت أثرًا تحت الأرض.

فمن رحم الأرض خرجت الحكاية

ومن رحم الأرض، ما زالت بلاد الشام تعيد لنا تاريخها.

ملاحظة منهجية

اعتمد هذا الجزء على الجمع بين النصوص المسمارية، والمصادر المصرية، والوثائق الحثية، والدراسات الأثرية الحديثة، مع التمييز بين المعلومات المؤكدة والمواضع التي ما زال تحديدها أو تفسيرها موضع نقاش بين الباحثين.

وعند وجود أكثر من نظرية حول موقع مدينة أو طبيعة كيان سياسي، تم اعتماد الصياغة الأكثر تحفظًا وعدم تقديم الفرضية العلمية على أنها حقيقة قطعية.

المراجع

١. هورست كلنغل، سورية من ٣٠٠٠ إلى ٣٠٠ قبل الميلاد دراسة في التاريخ السياسي.

٢. تريفور برايس، مملكة الحثيين، مطبعة جامعة أكسفورد.

٣. وليم ل. موران، رسائل تل العمارنة، مطبعة جامعة جونز هوبكنز.

٤. د. ج. وايزمان، ألواح ألالاخ.

٥. ك. ليونارد وولي، ألالاخ: تقرير عن الحفريات في تل أتشانة.

٦. ك. أصلِهان يَنَر، تل أتشانة، ألالاخ: نتائج الحفريات والدراسات الأثرية.

٧. بيتر بفيلزنر، دراسات وحفريات قطنا وتل المشرفة.

٨. إيتامار سينغر، دراسات في مملكة أمورو وعلاقاتها بالحيثيين.

٩. غاري بيكمان، النصوص الدبلوماسية الحثية.

١٠. جاريد ل. ميلر، دراسات في النصوص الحثية وتاريخ سورية في العصر البرونزي المتأخر.

١١. فريدريكو زانغاني، دراسات في ممالك بلاد الشام الشمالية خلال عصر الدولة الحديثة المصرية.

١٢. ماريو ليفيراني، الشرق الأدنى القديم: التاريخ والمجتمع والاقتصاد.

١٣. أميلي كورت، الشرق الأدنى القديم نحو ٣٠٠٠ــ٣٣٠ قبل الميلاد.

١٤. الموسوعة البريطانية – Encyclopaedia Britannica، مواد تاريخ الشرق الأدنى القديم وممالك سورية القديمة.

١٥. الموسوعة الأكاديمية لجامعة كامبريدج – The Cambridge Ancient History، الأجزاء الخاصة بالشرق الأدنى وسورية والعصر البرونزي.

Trevor Bryce, The World of the Neo-Hittite Kingdoms: A Political and Military History

OUP Academic +١

J. D. Hawkins, “The Neo-Hittite States in Syria and Anatolia,” in The Cambridge Ancient History

Kirk Grayson, Assyrian Rulers of the Early First A. (Millennium BC II (858–745 BC

الكاتبة أماني سليمان

سوريا محافظة الحسكة مدينة القامشلي

مواليد ٢/٨/١٩٨٨

درست في كلية العلوم قسم الكيمياء

أول مؤلفاتها كتاب خواطر بعنوان همسات النسمات

الثاني كتاب خواطر بعنوان صدى الأفكار

الثالث رواية بعنوان يضمدها الأمل

الرابع كتاب خواطر بعنوان عندما تتحدث الروح

الخامس رواية بعنوان أرواح تتأرجح على كفوف السحر

السادس كتاب خواطر بعنوان يا حزني السعيد

السابع رواية بعنوان قبل أن يراها

الثامن قصة بعنوان وكانت الصدمة

التاسع رواية بعنوان ترتيب القدر

العاشر مسرحية بعنوان النبوءة

الحادي عشر كتاب خواطر بعنوان كِلانا يبحث عني

الثاني عشر رواية بعنوان حين تكلم الموت

الثالث عشر رواية بعنوان نالت مرادها

الرابع عشر رواية بعنوان سلام فوق رماد الماضي

الخامس عشر خواطر بعنوان انا امرأة لا يعبرها الزمن

السادس عشر خواطر بعنوان على مائدة الوجدان

السابع عشر سكتشات مسرحية بعنوان من رحم المعاناة

الثامن عشر مونولوجات مسرحية بعنوان القوة تنبع من الداخل

التاسع عشر مونولوجات مسرحية بعنوان أنا والحياة

العشرون مونولوجات مسرحية بعنوان علمتني الحياة

الحادي والعشرون رواية بعنوان لم نخرج سالمين

الثاني والعشرون مسرحية بعنوان مقهى النصائح المجّانية

الثالث والعشرون مسرحية غنائية بعنوان ساحة المطر

الرابع والعشرون مسرحية بعنوان مكتب تصليح القدر

الخامس و العشرون مسرحية بعنوان مقهى الرسائل غير المرسلة

السادس و العشرون مسرحية بعنوان شركة ضائعة بين القرارات

السابع و العشرون مسرحية غنائية بعنوان قناديل المنى

الثامن و العشرون خمس سكتشات مسرحية بعنوان مجرات مضيئة

التاسع و العشرون مسرحية بعنوان صندوق الاصوات القديمة

الثلاثون كتاب خواطر بعنوان مسافة نجاة

الحادي و الثلاثون كتاب خواطر بعنوان ألوان قلبي

الثاني و الثلاثون رواية بعنوان على هامش القرار

الثالث و الثلاثون مسرحية بعنوان يوميات عريس مفلس

الرابع و الثلاثون مسرحية بعنوان عريس بالغلط

الخامس و الثلاثون مسرحية مزاد العرسان

السادس و الثلاثون مسرحية يوم بدون تمثيل

السابع و الثلاثون مسرحية غلط بغلط

الثامن و الثلاثون قصة بعنوان أجساد من كلمات

التاسع والثلاثون مسرحية حلم ع السريع

الاربعون مسرحية غنائية للأطفال المدينة التي تضحك

الواحد و الاربعون مسرحية غنائية بعنوان مدينة تزهر حين نحب

الثاني و الاربعون مسرحية بعنوان كل الطرق تؤدي إلي

الثالث و الاربعون مسرحية بعنوان آخر بث

الرابع و الاربعون مسرحية بعنوان محكمة الضمير

الخامس و الاربعون مسرحية بعنوان العريس الضايع

السادس والاربعون مونولوجات مسرحية بعنوان بدون تجميل

السابع و الاربعون مونولوجات مسرحية بعنوان بقايا انسان

الثامن و الاربعون مسرحية بعنوان مدينة الكذب

التاسع و الاربعون مسرحية بعنوان معجب سبع نجوم

الخمسون مسرحية بعنوان الجلسة الأخيرة

الواحد و الخمسون كتاب خواطر بعنوان قيد من حرير

الثاني والخمسون كتاب بعنوان من المجد إلى الطين(١)الحضارة السومرية

الثالث و الخمسون كتاب بعنوان من الطين إلى المجد(٢)الحضارة الأكدية

الرابع و الخمسون كتاب بعنوان من الطين إلى المجد(٣)الحضارة البابلية

الخامس والخمسون كتاب بعنوان من الطين إلى المجد(٤)الحضارة الآشورية

السادس والخمسون كتاب بعنوان وصفات الحب

السابع و الخمسون كتاب بعنوان من رحم الأرض(١)حضارتي إيبلا وماري

الثامن و الخمسون كتاب بعنوان من رحم الأرض(٢)اوغاريت والآراميون

التاسع والخمسون كتاب بعنوان من رحم الأرض(٣)الكنعانيون والفينيقيون

الستون كتاب بعنوان من رحم الأرض(٤) الحوريون، العمونيون،

المؤابيون، الأدوميون، الأنباط

الوحد والستون كتاب بعنوان من رحم الأرض(٥)الفلستيون والحثيون

الثاني والستون كتاب بعنوان من رحم الأرض(٦)العبرانيون والأسرائيليون

الثالث والستون كتاب بعنوان من رحم الأرض(٧)من حلب إلى حوض العاصي والممالك المحيطة